كتاب في جريدة

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 105 - الأربعاء 2 أيّار (مايو) 2007

يوسف حبشي الأشقر

المظلة والملك وهاجس الموت

رسوم جنان مكّي باشو





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

«كتاب في جريدة»

مئة عدد و ربع مليار كتاب...


الشيخ محمد بن عيسى الجابر و السيد كويشيرو ماتسورا

ولد «كتاب في جريدة» كفكرة عملاقة تخرج عن المألوف أو السائد في المشاريع الثقافية التقليدية في العالم وبالأخص في الوطن العربي. ولكن التحديات التي ولدت معه كانت تَكبُر وتتلاحق بموازاة مسيرة التحقق والبناء التي حملها تحت سقف منظمة اليونسكو – UNESCO التي بالتعاون مع MBI Foundation وقَّعت في 19 /سبتمبر – أيلول/ 2003 إتفاقية أولى من نوعها لدعم الثقافة والتربية في المنطقة العربية من خلال مواصلة الدعم لاستمرار «كتاب في جريدة» وانقاذه من خطر التوقف وكذلك العمل على إصلاح المناهج وتحديث النظام التعليمي في الشرق الأوسط من أجل إرساء أسس التربية الحديثة بالإضافة إلى تعريب الانترنت وكل ما يمكن القيام به لترقية وتشجيع ثقافة السلام والديمقراطية.
إن رؤساء تحرير كبريات الصحف اليومية العربية قد أقاموا، من خلال دعمهم لمنظمة اليونسكو في مشروع «كتاب في جريدة»، ومشاركتهم وإصرارهم على اجتياز مختلف الصعوبات والعوائق، صرحاً ثقافياً مميزاً في المجتمع العربي ومنحوا الإعلام دوراً رائداً في بناء الإنسان العربي المعاصر.

إلى جانبهم وقف المثقفون والأدباء والدارسون وهم منهل الإبداع ومنتجو الثقافة، يؤسسون بهذه التجربة الحضارية الأولى من نوعها حاضرة ثقافية ترقى إلى التحديات التي تواجهها الأمة العربية على أبواب القرن الحادي والعشرين.
كل هؤلاء إلتقوا تحت قبة المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة – اليونسكو – التي كان لها الفضل الأكبر في إطلاق هذه المسيرة مُستلهمةً من نجاح تجربتها الأولى في أميركا اللاتينية وإسبانيا، "Periolibros" ولكن التجربة العربية «كتاب في جريدة» التي تسلمت «الشعلة الأولمبية» للكتاب ذهبتْ أبعد من التجربة الأم التي توقفت بعد ست سنوات في العدد رقم 66؛ وبهذا تكون المنطقة العربية قد حققت الرقم الأكبر في عدد السنوات والإصدارات في مواجهة التدهور الحاد الذي تعانيه الحاضرة الثقافية العربية في ميدان نقل المعرفة والقراءة وإشاعة الفنون، إذ أن أرقام الإحصاءات التي تصدرها الجهات الدولية المختصة كاليونسكو UNESCO والـ UNDP وغيرها تؤشر بخطر محدق يتهدد الثقافة العربية في مواكبة الانفجار المعرفي والعلمي والفني في العالم على أعتاب هذه الألفية الثالثة.
إن «كتاب في جريدة» الذي انطلق قبل عشر سنين شهد ولادة مشروع جديد يتيح لعموم الناس الوصول إلى أهم الأعمال الأدبية والفنية لكبار الأدباء والفنانين العرب، كما يهدف في إطار جهود منظمة اليونسكو للترويج للحوار بين الحضارات عبر توزيع المعرفة ونشرها على أوسع فئة من الناس في المنطقة العربية شهرياً في الصحف دون أي تكلفة مالية. إن تطور هذه المبادرة الإقليمية أمر مذهل خلال السنين العشر الماضية من نشر «كتاب في جريدة»، حيث تم توزيع مئة كتاب بمعدل مليونين ونصف مليون 2,500,000 كتاب لكل إصدار على كل الدول العربية، وبهذه الطريقة يكون قد أهدى هذا المشروع قرابة ربع مليار كتاب وصل إلى فئة من القراء لم تألف التعامل من قبل مع النتاج الثقافي والإبداعي، لذلك فإن علينا النظر إلى هذا الإنجاز على أنه الأول في المنطقة العربية من حيث الأهمية وعدد الكتب الموزعة والمشاركة الفعّالة التي ولّدتها.

إنطلاقاً من هذه المحصلة الإيجابية الكبيرة التي ترُدُّ على الحاجات الأساسية للمنطقة العربية في ميدان نشر المعرفة والإندماج الثقافي، فإننا نهنىء كل القائمين على هذه التجربة طيلة العشر سنوات المنصرمة من عمرها من رؤساء تحرير الصحف العربية الشريكة والهيئة الإستشارية والمؤسسة الراعية لدعمها اللاّ محدود والهيئة التنفيذية في كل من بيروت وباريس آملين لهذه المسيرة الاستمرار والتطور الدائمين.

السيد كويشيرو ماتسورا
مدير عام منظمة اليونسكو
UNESCO

الشيخ محمد بن عيسى الجابر
المبعوث الخاص لمدير عام منظمة اليونسكو
للتربية والتسامح والسلام والديموقراطية
رئيس مؤسسة MBI Foundation





يوسف حبشي الأشقر

تقديم: عباس بيضون



يمكن أن نعتبر يوسف حبشي الأشقر أبا الرواية اللبنانية الحديثة إذ أن هذه الرواية كانت حتى حينه لا تفصل الرواية عن تأسيس تاريخي للبنان بما يعني ذلك من أدب بطولي، أو لا تفصل الرواية عن تأسيس نوستالجيا ريفيّة مبعثها القلق من غروب الريف أمام توسع وحشي للمدينة قارب أن يجرفه ويجرف معه ثقافة وقيما قيل يوماً أنها مقوّم أخلاقي وتاريخي للبنان، أو لا تنفصل عن زخرفة أدبية محلها تمرين أسلوبي وتوليد لغوي ناهيك عن الدرس الأخلاقي والسياسي أحياناً. باختصار كانت الرواية اللبنانية حتى حينه تجمع جانباً من الحكاية وجانباً من الأمثولة. كانت هكذا محاكية لما سمي الحلم اللبناني، وهو حلم يتجاوز جغرافيا البلد وحجمه ليحوله إلى عقل وطاقة واستعداد ومبادرة، أيّ إلى أمثلة وتنميط ملعبهما الأكبر الحكاية. كانت الزخرفة الأدبية المطاطة أحياناً موازية بالطبع للوعود العامرة والإقدام الذي يتكامل أحياناً مع نبل تراجيدي وتضحية عامرة.

لم يولد الأشقر من الغيم بالطبع، الأرجح أن بينه وبين الرواية اللبنانية استثناء فريداً ذلك الحين هو فؤاد كنعان. بقي فؤاد كنعان في تلك المنطقة الوسطى غير القابلة للوصف والتحديد والتي هي بين القرية والمدينة . بين أدب مسنن مبري ينقلب بسرعة إلى تهديد سدومي وبين واقع مركب من تشوية وقوى عمياء. كان القرف (وهو أحد عناوين فؤاد كنعان) والإشمئزاز هما الغذاء الروحي لفؤاد كنعان، بل هما دينه المعاكس الذي يجعل منه كاهناً للغضب والنبؤة الكوارثية. لم يكن فؤاد كنعان محاوراً، لقد امتلأ حتى أسنانه من الأكاذيب ولم يبق عليه إلا أن يهدمها. لكنه كان واعياً لأن لا ينقلب ذلك إلى درس مضاد، وإلى كنية أخرى. لقد بقي نصه رهين أدب أسود، جعلته اللعنة حرباً وإن يكن على الحد السلبي، وبقي في منطقة بين الأدب والرواية. لم يستسغ الحكايات لكنه فضل عليها رؤى متشظية وهو على هذا جعل نصّه حقلاً من الكسور والزوايا. كتب قصصاً قصيرة وسرداً مكهرباً متوتراً. لم يملك الصبر الذي ينتج رواية. لم يملك هذه الصلة بالخارج وبالآخرالتي تتخطى الرسالة الخاصة. كان «أنا» مجروحة حتى العظم وحتى الدم. «أنا» تطبع خطوات من نزيف مستمر، أو تتحول إلى سن جارحة لكنها مع ذلك تتزوج نفسها وتولد من سخطها الخاص.

لم يأت يوسف حبشي الأشقر من الغيم لكنه لم يأت من مكان غير معلوم. لا بد أنه بينه وبين فؤاد كنعان أكثر من المعاصرة والجوار. ليس الأشقر فؤاد كنعان، لكن في أسلوبه المشدود المتوتر ما يذكّر من بعيد أو قريب بفؤاد كنعان، أو أننا لا نستطيع أن نفكر بجملة الأشقر بدون أن نفكر بأن عملاً تمهيدياً سبق إليها. لنقل أن جملة فؤاد كنعان المتوترة المسنّنة وهي جوهرته الأساسية وقعت في يد الأشقر. لقد منح كنعان الأدب اللبناني هذه الجملة التي تضج بالفعل، وتبدو وكأنها تتحفز للضرب، الجملة العصبية ذات الحد المسنن، السريعة بدون لهاث. جعلها الأشقر فيما بعد أليَنَ وأكثر حواريةً وسرديةً لكنها احتفظتْ بتوترها وكثافتها وسحنتها العصبية والجسدية.

لم يفارق يوسف حبشي الأشقر الحكاية الريفية، لقد كتبها وكتب معها أدباً من نوع آخر. كتبها لكنه استنفدها ووضع تقريباً خاتمة لها. أحدث فيها التحولَ الذي سينقلُه فيما بعد، وفي الوقت نفسه إلى روايته. كسر الحكاية من داخلها، فلم تبق على براءتها المزعومة، لقد تسرب الشر إليها. بدلاً من أن تكون فصلاً من جنّة مفقودة باتت عالماً منازعاً مفسوداً من أساسه ومسمماً بادعاءاته ومشرفاً على نهاية أكيدة. لم يكن الفولكلور هو الذي يتكلم هنا رغم الشروال واللبّادة والزرع والحصاد، لم يكن الحنين ولا الكاريكاتور الذي تصير إليه السذاجة الطاهرة. كان هناك الازدواج والجشع والكذب والمتاجرة، بل النفوس النتنة والمؤامرات والمفارقات المخيفة. الشر، الشر كان أيضاً سيداً هنا مع الكوابيس والمخاوف والتشويهات المؤذية. لحظة الانتقال إلى المدينة لم تكن لدى الأشقر تحية لحلم منطفئ أو مرآة مكسورة، لم يكن الريف حلماً، لم يوجد في الأساس عنده كحلم. لقد ساد دائماً نوع آخر من الحياة، القسوة والظلم والكذب دائماً هنا، يوسف حبشي الأشقر كتب الحكاية لهدم الحكاية، كتب الريف ليفضح الريف، ومع الريف ليفضح الحياة كلها. هنا لا رحمة، لا مكان لتوهمات مجانية، لا محل لغناء لا مجد. العالم هو القسوة وصريف الأسنان والفضيحة. كان يوسف حبشي الأشقر يمارس الحكاية الريفّية لينقضها، وفي داخل هذه الحكاية يتململ أدب آخر ونهايات أخرى. لم يكن ريف الأشقر طبيعة وضيافة وجيرة طيبة، لقد كان صراعاً وعلاقات صعبة. ستكون روايته أيضاً على هذه الشاكلة. إنها في المدينة هذه المرة لكنها ليست سياحة في أسواق وأحياء وشوارع وأرصفة وتصفحاً لواجهات، وتسكعاً على أرصفة وبين مقاه وبارات ومطارح وزوايا. مدينة يوسف الأشقر كقريته هي نوع من مكان نفسي عقلي، هي خريطة مغفلة أو متاهة، لم تكن السياحة المكانية غاية الأشقر، بل هو في الواقع يحمل أبطاله تبعات مجابهات وصراعات بروميثيوسية وسيزيفية، يضعهم أمام مصائر وأقدار، ويواجههم بحقائق مسنّنة ويعرضهم لدراما قاسية وكل هذا فوق النموذج الجغرافي الصغير الذي هو لبنان، والذي قال فيه سعيد عقل بالمعنى نفسه ذات يوم «ليس أرضاً ولا جبالاً وماء». النموذج الجغرافي الذي ليس مكاناً بقدر ما هو نوع من أولمب مصغر.

طالما قيل أن يوسف حبشي الأشقر ترسّم جان بول سارتر في ثلاثيته الشهيرة «دروب الحرية»، الأرجح أن هذا الكلام يصح ولا يصح. لقد دخل الأشقر إلى الرواية من رؤيا وجودية، كان العالم بالنسبة إليه هو القضايا التي يطرحها والحياة هي بحث المرء الدائب عن هويته ومعاناته لوجوده، وتفكيره في معناه ومجابهته لشرطه الانساني ومصيره. أكثر من سارتر أفرغ يوسف حبشي الأشقر العالم الروائي من ثرثرته اليومية وأثاثه التفصيلي. كان المكان عنده فوق المكان ومعالمه مسالك للنفس والروح وخرائطه هي مسار القلق المصيري. إنها مدن الأسئلة ومدن البحث والمتاهة الداخليين. أكثر من سارتر كانت مدينة الأشقر أقرب إلى ديكور مسرحي، بل أن في روايته الكثير من المسرح، إذ أن أثمن ما فيها وأغناه هو الحوار، الحوار الثري الديناميكيّ المتولد من بعضه البعض. والحق يقال أن الأدب العربي قلّما شهد حواريات بهذا الخصب والغنى. حَواريات تبقى على توتر العقل والنفس وعلى قلقهما وعذابهما، بدون أن يتحول ذلك إلى أمثولة وإلى شروحات وعظات وتأسيس ديني، كما هي الحال في معظم قصصنا «المفكرة». رواية الأشقر رواية أسئلة لكنها ليست على الإطلاق كناية فلسفية، إنها رواية عذاب في النفس، بل موت في النفس إذا استعرنا دوراس، لكنها ليست محاولات لتقليد نص ديني أو تأسيس ديانة خاصة.

ما فعله الأشقر في الرواية اللبنانية والعربية كان بدون شك حاسماً. لقد طرد الرواية الواقعية التي كانت الأساس يومذاك. لم تكن روايته وثيقة اجتماعية أو تاريخية ولم تكن حتى تقريراً يومياً. لم تكن روايته المادة الأولى للواقع فهي الكتابة الثانية، إنها التحويل والتصفية للمادة الأولى وإدخالها في نسق روائي. لم تعد الكتابة الرواية ترجمة أو كتابة موازية، صارت محطة تحويل وامتصاص وإعادة انتاج بالدرجة الأولى. لنقل أن رواية يوسف حبشي الأشقر لم تعد «إخباراً»، إذا كان من شيء تقلص في عمله فهو الخبرية أو الحادثة. لقد غدت هذه خارطة للسرد فيما تركز السرد أساساً في الحوار، ليس الحوار التقني فحسب ولكن الحوار الأنطولوجي للمرء مع نفسه ومع عالمه ومع وجوده وعدمه ورغبته ومصائره.

الإنسان محكوم بالحرية. مقولة سارتر تزن أو لا تزن في أدب الأشقر، الحرية نعم لكن بوصفها عبئاً وبوصفها ثقلاً باهظاً على الوجود. في نصّ الأشقر الروائي شيء من قدرية أغريقية، صراع منذور للفشل وخيبة تملك في النهاية. أمّا المهيمن على هذا النصّ فهو حضور شبه ميتافيزيقي للشر، لفساد الإنسان. أبطال الأشقر يعانون عذاب الفكرة بقدر ما يعانون عذاب النفس وقلقها، لقد رأوا مسبقاً السقوط والخراب مستشرفين الحرب اللبنانية التي لحقها الأشقر في آخر كتبه (المظلة والملك وهاجس الموت) والتي ربما كان موته المبكر من لعناتها.

جنان مكّي باشو

www.ginane.com

جناس مكّي باشو رسّامة ونحّاتة لبنانية عاشت في الولايات المتحدة وتخرجت من أكاديمية الفنون الجميلة في Chaville - France شافيل – فرنسا.

أقامت العديد من المعارض الفردية والجماعية في لبنان والعالم ولها أعمال مقتناة في المكتبة الوطنية الفرنسية ومتحف ڤالمرأة في الفنڤ في واشنطن وسواها من المؤسسات الثقافية الوطنية والعربية والعالمية.

تمتاز أعمال باشو بالتوتر العالي في الموضوع والتعبير وقد اتخذت من الحرب الأهلية اللبنانية مادّة فنية لجأت فيها إلى الرمز والألوان الحادّة والكولاج بما في ذلك شظايا القنابل التي استعملتها للعديد من المنحوتات.

بين التشخيص والتجريد، بين الأحمر والأسود بين الإيحاء الشعري والشعار السياسي تتوزع مفردات «باشو» وتتبلور ملامحها الفنية.

شوقي عبدالأمير

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَرّ
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

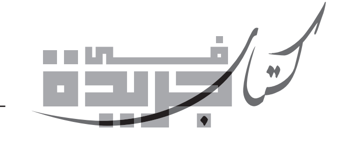
المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه - محامون»

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
عدد رقم 105
(2 أيّار 2007)
الروشة – شارع شوران – سنتر دلفن –
الطابق السادس
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com



المظلّة والملك وهاجس الموت*

«مقتطفات»

يوسف حبشي الأشقر

الواجهة

الواجهة قناطر ثلاث، لون خشبها العتيق أبيض – رمادي، مقشور الدهان، زجاجها يتموّج تحت النظر، حتى ان كل عين ترى فيه أشكالها.
زوبعة الماء والريح ترتجّ في الخارج وتزحف إلينا من الواجهة.
الحرب على أبوابنا وفي آذاننا.
البهو طويل، فيه صفّا مقاعد ونبتات خضراء.
فيه مدفأة ومنقلان وبرد كانون.
زوجتي وابنتي الكبرى تشتغلان الصوف. الصغرى تصوّر غابات خضراء، خضراء، غير مسيّجة، لتقدر العصافير أن تأوي إليها هرباً من الزوبعة.
أمي ملتصقة بالمدفأة، معصوبة الشعر والجبين بالشال الأسود، تتكلّم وحدها: «آه لو أصلحنا هذا البيت! مَن ليس له مرقد في ضيعة ليس له مرقد في آخرة. ولكن مَن كان يعرف أن هذه الحرب الملعونة ستقع، قتلهم الله».
الكلب نائم حدّ المنقل. الماء يدخل من الواجهة مع الضوء. الواجهة علاقتنا الوحيدة بالعالم، وحدها لا خشب على زجاجها. الماء يدخل من الشبّاك الغربي، من خشب الشبّاك الغربي، ينزل من القرميد، حدّ المدفأة على النبتات الخضراء، في غرفة الطعام، حدّ سريري.
نقاط الدلفة اسمعها غصباً عنّي، متفاوتة النغم في أوعية البلاستيك، أسمعها مع الراديو، يقول: «تبادل إطلاق نار بين شارع الأرز وباب ادريس، بين ساحة رياض الصلح وساحة الشهداء».
دفّتا الكتاب من الجلد الأحمر. إسم الكتاب مطبوع بماء الذهب، رقم الصفحة ,103 الصفحات مشرقة، حروفها كبيرة. عمري كلّه أحببت الكتب الفاخرة. كنت أدخّن تبغاً رديئاً لاقتصد فاشتريها.
رفعت نظري عن الكتاب، تطلّعت إلى الواجهة: ضباب العاصفة الرمادي يغطّي حدود كفرملات، عليه يطفو، كما على بحر ميت، قرميد البيوت مغسولاً ؟ يتحرّك ؟ كلّما تنفّس صدر الريح، ومن بعض انفراجاته تشرئب أعناق صنوبرات، حيناً كالباقة، وحيناً كوردة الثلج. الماء على زجاج الواجهة يزيد تموّجه، فترقص مبهمات القرية.
أحسست بثقل الكتاب المفتوح على حضني وبيديّ تتمسّكان به، تطلّعت إليه، لاحظت أني لم أزل حيث كنت. في الصفحة الثالثة بعد المئة، قرأت سطرين أينما اتّفق، لم أفهم منهما كلمة ولا انتهبت أنّي توقفت عن القراءة.
في المنفضة عن يميني ماتت النار في الغليون، تساءلت هل سأولعه. إلتفَفْتُ بعباءة وبر الجمل العتيقة. بردان. وما تعمل المدفأة وما يعمل المنقل في بهو أطول من يوم الجوع، فيه أربعة أبواب بالكاد تقفل وأربعة شبابيك، وكل أربعة منها معرّضة للرياح الأربع؟
رأتني أمي أحاول أن أدفأ فقالت: «الحق علينا، كان يجب أن نصلح البيت. ما أبشع وجهك يا بيروت. كل شيء وضعناه في بيروت، مالنا وحالنا، ودم قلبنا، أينك اليوم يا بيروت؟ يا حسرتي عليك يا بيروت. الحق علينا: مَن يحتقر بيت ولادته يقع في حفرة بلادته، ومن يؤجل إلى الغد بكي عند الجد. بيت الضيعة للصيف قال، الصيف بساطه واسع، خذوا شتاء يا مهملين، اتّكلوا على بيروت يا مارقين».
قال الراديو: «الطقس السيّء سيستمر يومين بعد في شرقي البحر الأبيض المتوسط».
قالت أمي: «المدفأة أكلت اليوم قفّتي حطب، والمنقل خمس شعّالات فحم».
قلت: «لا تبكي يا أمي على الحطب والفحم، المهم أن ندفأ ونأكل ولا نموت في هذا الشتاء، وبعده نرى».
شدّت أمي منديلها على رأسها ووضعت يديها على خصرها وتطلّعت مسمومة الشفتين إلى الواجهة.
عدت إلى صفحة الكتاب، حامت ذبابة حول رأسي. ذبابة في 28 كانون الأول؟ هززت رأسي وتطلّعت إلى الكتاب. حطّت ذبابة على أنفي، نفخت عليها. تركت الكتاب، أولعت الغليون، عدت إلى الكتاب. نزلت الذبابة على الصفحة ,103 تمشّتْ، تَنظّفَتْ، قرأتْ. حركة من أعماقي أطبقتْ الكتاب بقوّة عليها. شعرت أنها معست، أحسست بموتها، تخيّلته، أو ارتحت له، ليس نكاية بها بل حاجة إلى توسيخ الكتاب المذهّب الإسم.
أطعموا المدفأة رؤوس الأسماء المحكومة إعداماً في حرب الأسماء. أطعِموا المدفأة أعضاء الأسماء المقطوعة، الأسماء المشلّعة حروفها، حروفها المركّبة على أجسادها، النابتة من أجسادها كالفطر من شقوق الصخر، وغير المكتوبة في الكتاب المذهّب الإسم.
الدنيا باردة، أطعِموا المدفأة. الطقس العاطل سيستمر.
المهم أن ندفأ ونأكِل ولا نموت، قالت أمي. الحق معك. ومشت تطعم المدفأة حطباً، ثم توقفت في وسط البهو وقالت: أضيئوا الأنوار في البيت ولو كنّا نهاراً. ما هم! الضوء ليس للرؤية فقط.
ولكنْ يا جدتي!
ظننتني خرفت! لا يا بناتي، الضوء يدفئ أيضاً. الضوء يدفئ أيضاً. الضوء يدفئ. قمن إلى الغرف، أضئن، شعشعن الأنوار. المهم أن ندفأ ونأكل ولا نموت في هذا الموسم قال أبوكن. الحق معه، الحق معه. بعد هذا الموسم نرى.
رفعت نظّارتي إلى جبيني. تطلّعت إلى الواجهة: البيوت مشرورة على خط متواز. شبابيكها مقفلة، تحتضن النَفَس والحرارة، تنطوي على ذواتها، تحادثها حديث السر العميق، حديث الحماية، – متقوقعة، لاطية، حذرة، متوقّعة، متنبّهة ؟ حديث الخوف، حديث عبادة البرق والرعد والحفافي المنهارة تحت السيل.
البيوت المشرورة على خط متواز، منكمشة، مزمومة، لاجئة خلف جدارها، نارها وأضواؤها لها وحدها، لداخلها، لملكيّتها، لغريزة صيانة حالها، حالها وحده الذي لا يخرج ولا يطلّ على الآخر.
وأشتاق في ممر الحماية الضيّق ساعات الحريَّة، أشتاقها جميعاً، لامعات في المدينة الطروب، أشتاق شتيمتي المدينة الخوتاء في الغرفة المقفلة على سر علاقة، على أسرار علاقات، في نزهاتي الطويلة وحديثي عن الحياة والموت وما بينهما، وفلسفاتي عليهما. أشتاق من المدينة الأمكنة المحرّمة على اسمي، الأمكنة التي فيها بعض أحسن ما أُعْطيتُ وأَعْطَيتْ.
أشتاق وجهاً وصدراً ويداً حتى الشبق... وتروح. ثم أشتاق عينين وخدّين وساقين حتى الدموع... وتروح. وأشتاق إنساناً كلاً، كلمة معه، مرحباً للآخر، سؤالاً لمن هو مثلي في منفاه.
أيهم ليس في منفاه. أينا ليس في منفاه!
منافينا، جزرنا المقفلة كل واحدة على نفسها في صلاة للبقاء. ما أهشّ الحوار، لماذا؟
لا تقسي عليه، الحوار يعود إذا بقي المحاور: قلت لها أمس. صحيح، حماية الذات قد تكون أيضاً لحماية الحوار، للابقاء على المحاور. وشوقنا أليس حواراً؟
لكن الاتصال، الاتصال، قالت: حاجة الاتصال.
كان صوتها بعيداً، خطفتْ المسافة حرارته، أكلتْ الطريق دفئه.
سألتها عن صوتي. قالت: يشبه العظام.
الشتاء ينزل كمكانس القش السميك على الواجهة، يعطّل الرؤية نهائياً، يكمل العزل، يوجع العزلة. الحرش صار مبهماً، البيوت رؤيا في حدقتي سكران.
وأحلامك في كفرملات؟ بالسكن في كفرملات؟



* صدرت الطبعة الأولى لهذه المختارات القصصية.
دار النهار بيروت عام 1980

قالت لي.
أحلامك بالنزهة الطويلة تحقّقت. مئة يوم في كفرملات: ذيل من الصيف والخريف كلّه، وهذا شتاؤها يطل. إحلَمْ بحلمك، إفرَحْ لمتعتك.
لا تُجدِّفي على المتعة. وهل متعة بحلم أقفلت عليه أبواب الحلم الذي يليه؟
كيف، كيف يا كافر؟!
الحلم السجن لأنه حلم لا نافذة فيه على حلم آخر. الحلم مطرح هروب لا مطرح قرار. الحلم الذي يحرمني منك ما اسمه؟
وصمتُ وصمتتْ، صمتتْ تستسيغ الحوار، تستسيغ دفء الشوق، وصمتٌّ أقول في داخلي: «الحلم الذي يحرمني منك ومن سواك، بشراً وأمكنة وغداً». وقلت بصوت عال: «الحرب، الحرب، فقالت كأنها صداي: صحيح! الحرب.»

ستار المطر على الواجهة كستار حديدي على إحساسي. شعاع الضوء الوحيد أُبْعِد. هذا الزمن المؤقت الذي لا حديث بيننا وبينه، الزمن المقطوع اللسان، المولول كاليتيم، لنقبره كأنه لم يكن، الآن، الآن على الأقل وليصرخ بعد ذلك كيفما يشاء.

ساذجة أمي، صدّقتني بسرعة. لا يا أمي ليس المهم أن نأكل وندفأ في موسم بردنا وذلّنا الذي يستمر، وألاّ نموت فقط. مهم أيضاً أن...
أن ما؟ أستحيي أن أقول: نعيش.
«لا، لا تستح» قالت ابنتي الكبرى وهي تغنّي.
«لا، لا تستح» قالت الصغرى وهي تضحك.
ومن بعيد حيث هو مع صديقته، ينكّت ويضبط شاله وينتبه لحذائه كي لا يوسخه الوحل قال ابني: «لا تستح، لا تستح».
في القسم الشرقي من البهو أمي وزوجتي وبنتاي يشوين كستناء. المنقل بينهن، هن حوله، يجمعهن عقداً متناسقاً، لا يحفلا إلاّ لماماً ؟ وكي ينسى بعد لحظات ؟ بالبرد في الخارج ومكانس الصقيع.
قالت زوجتي: أفضِّل المنقل على المدفأة، أرأيتم المنقل كيف يجمع!
قالت ابنتي الكبرى: المنقل مثل الجد والجدة تلتف العيلة حوله.
وقالت الصغرى: لولا الحرب لما كنّا أحببنا شتاء كفرملات.
قبّلتها أمّها. بكت الصغيرة وسألت: الجثث بابا يعني الموتى؟
حشوت الغليون.
قام أبي من نومه، دخل البهو حاملاً كتبه ودفاتره خفيفة تحت إبطه كشعره الأبيض، سهلة كحياة إيمانه. قدّمْتُ إليه منقلاً أخذه وتدفأ.

أولعت الغليون: «ساعدني يا رب، ساعدني، لحظة متعة فقط».
قال الرب: «يا أبله كان في متناولك بعض من المتعة ولم تذهب إليه، الآن راح. كم اشتقته في بيروت. الآن مضى. يا أبله لماذا لم تحضر ولا مرّة زيّاح* الميلاد في سيدة الحفّة*: درويش يرتّل، ورزق الله يقرع الصنوج وجوزفين تغنّي: «أرسل الله ابنه الوحيد نوراً للأنام».
«وراح الميلاد قلت له، راح ممعوساً في قلبي، كنت حزيناً قبله وفيه وبعده، الحرب، الحرب يا رب أنستني كيف أصلّي. لماذا الحرب يا رب».
ليتني أعرف قال...
هل طلبت أنا ويسكي أم أن زوجتي من تلقائها ناولتني إيّاها؟ نسيت. المهم أني أشرب، بعض من الزوغان يرقص في ذهني.
أبرقت في سرعة وأرعدت، قصفاً متتالياً.
البرق كظهور إله.
صلّبت أمي بيدها على البيت مرّتين، وأغمضت بالأخرى عينيها وقالت دون توقّف: «قدّوس، قدّوس، قدّوس، أجابها أبي: «أنت القويّ الصباؤوت» قلت دون وعي: «ارحمنا يا رب». وفكّرت. لا حماية ضدّ الصاعقة.
أين تراها وقعت؟ قالت أمي: مسكين إبراهيم! الأسبوع الماضي وقعت صاعقة على زريبته فقتلت بقرته الشقراء.
«بالرزق ولا باصحابه» قال أبي. وأخذ المكبّر من جيبه وراح يقرأ في جريدة عمرها يومان.
قلت: الأحداث تسبق الدقائق فكيف بالأيام؟ ما تقرأه تجاوزه الزمن.
قال: لا! أقرأ مسلسلاً، تمثيليَّة، أعتقد أنها شارفت على نهايتها.
قلت: تعب الممثلون.
قال: لا! التمثيلية شارفت على الانتهاء قلت لك. المؤلف انتهى من التأليف، استنفد أبطاله.
قلت: هل يقتلهم تعتقد، فتتشفّى؟
قال: لا، لن يفعلها. المؤلف لا يقتل أبطاله إلاّ إذا كان لن يستعملهم من جديد.

ابنتاي تتقاتلان، الكلب يقفز بينهما. لن يتحزّب لأيّة منهما. أعرف. الكلب يلعب فقط.
سمعت صفيراً. ثيابنا المنشورة على الشرفة تكاد تطير. وضع أبي المكبّر حدّه ولمعت عيناه: أنظر إلى العاصفة الآتية قال، ووقف. وقفت قربه، أتت زوجتي وبنتاي، ودخل من الباب الكبير إبني راكضاً إلينا، أمي لم تتحرّك، بقيت تشتغل شراريب لشال زوجتي الفستقي، وتصلّي. نحن كنّا ننظر من الواجهة.
صحيح رأيتها. رأيتها آتية في الأشجار التي تشلّعها فتنحني تقبّل الأرض مستغفرة، في المطر الذي تلولبه وتشتّته نتفاً، كل نتفة في صوب، في الأوراق التي تحملها عن الأرض برغم ثقل الوحل عليها وتنثرها كما ينثر الزارع حفنة قمح. ما أكبر مذراتها العاصفة وما أضيق بيدرها!
مسكين! بعيداً جداً عن حدوده طار البذار. أين؟ غداً تحت الحفافي ينبت ما يصلح منه للموت، ويذبل دون معنى ما لم يصلح بعد.
قال أبي: مَن لا يستطيع الركوع يموت في العاصفة يا ابني، أنظر. أغصان الصنوبرة التي كانت كوردة الثلج سمعتها ورأيتها تتقصّف.
قال: نسيت من قارب بين السنديانة والغزّارة.
قلت: وأنا أيضاً.
قال: الحق معه.
قلت: ليس للموت معنى القداسة إلاّ عندنا.
قال: معنى البلاهة. مَجِّدوا الموت ليستسهلَهُ من يريدونهم له وَقْداً.
جلسنا ننظر إلى الواجهة.
من زمان، من زمان لم أكن قد سمعت الهواء يغنّي، الآن أسمعه من خلال شقوق الواجهة، ومن مدخنة المدفأة نغم شبّابة كئيب، طويل الزفرة، وضيع المعاناة، قانع بألمه، شرط السماح له بالأنين.
طويلاً تتالى النغم، وقويت النار تهدر في المدفأة، وبعدها راحت تتكلّم، تتكلّم غناء يشبه صوتاً، يشبه كلمات، حاولت أن أفهم شيئاً منها. كدت أفهم. اللحن أعرفه، فجأة شبّه لي أنه كنيسة مارونيّة تهرق فيها الذبيحة.
أحببت لحن كهنتها، وشممت في جببهم رائحة البخور وفي ذقونهم رائحة النبيذ الحلو، أولئك، أولئك القدامى
أصحاب اللحى البيضاء، الطويلة، المصلين بالتاج والعصا.
وغنّت المدفأة، فركعتُ عفواً، اقترب منصتاً إلى وشوشتها «بيوموها ودقتم حاشود يله».

شعرت بالصمت حوالي، تطلّعت، رأيت الجميع وقوفاً، مكتوفي الأيدي يذبحون للعاصفة. وضعت العباءة على رأسي وخرجت.
لحقوا بي: يا مجنون، يا مجنون، إلى أين يا مجنون؟
على دروب الضيعة حملت العباءة.
الساعة قبل منتصف الليل بقليل. العاصفة هدأت، لكنها لم تزل تمطر، والضباب قريب قريب، يغمر أشجار الشربين والليمون ويطلع من عبّ السنديانة بخوراً أبيض ودخاناً رمادياً.
أنزلت عباءتي عن رأسي. الطريق تلمع. أضواؤها تشع فوق الغابة، تفتح في عمقها درباً ملكية، نقاط الماء تنزل من الأشجار بغير انتظام، رذاذ يغسل وجهي.
كفرملات صامتة، باردة، حزينة، مائتة، لولا بعض الشبابيك المضاءة.

لوقع قدمي على الاسفلت صدى موحش ومؤنس معاً. الريح في حرش الصنوبر بحّة أجشّ في فم الوادي.
لولا بقيّة من خجل لتحاورت مع كل هذا، لفتحت رئتي وتنشّقت طويلاً الريح والضباب والرذاذ وتوقّفت على شوار المحفار أتسمّع إلى البحّة تخرج من ألف جسم عرقان، وأشم رائحة عرقها. ولكني كنت خجلاً، خجلاً من الحرب. فأسرعت، هرباً من الحنين الذي لن يأتي والذي لأنه لن يأتي سيزيدني كآبة، وتسارعت معي أصداء قدمي كحوار مبغوت، مستعجل، بين اثنين لا يلتقيان.
دخلت البيت، جميعهم ناموا، استلقيت كاستلقائي كل يوم، كشعوري كل يوم، أيامي التي منذ أول الحرب تتشابه كأيام الحرب، توائم، توائم لها اسم واحد ولا شامة في خد أحداها تميّزها عن الآخر.
لم يأت بعد وقت المدافع فأسمعها تدمّر ذلك الحلم الذي كالورق المصقول كنت أسترقده للخط الكوفي والخط الفارسي وللأحرف الغربية الكبيرة المزركشة.
جمدت عيناي على الشمعة التي تضيئها أمي لقلب يسوع. تسلّيت بخفق لهبها ثم بجنونه وغضبه كلّما قصّته شفرة هواء تدخل.
هل يبقى للخشب الذي عمره مئة سنة رائحة؟
أتراها ذكرى تلك التي كنت أشمّها منذ أربعين سنة؟!
لكن لا، إنها هنا أطول من الذكرى، مقيمة، جسديّة، في جسم البوّابة. حملتني الرائحة لحظات إلى عالم الحلم الذي تدمّر. الحلم الذي أكلته الحرب.

الساعة الواحدة. فتحت الراديو. حصيلة اليوم 76 قتيلاً على الطرق، على الأرصفة، في الغرف، لم أتخيّل منهم سوى أسنانهم التي لن تأكل أبداً.
تطلّعت إلى الشمعة، إلى قلب يسوع المعلّق فوق القمرية الملوّنة وسألته: طيّب! أنت مع مَن؟!
أحسست أني جائع، ببالي أن آكل، لم أعرف ما، وإني لو أكلت لما شبعت، وإني أستطيع أن آكل نهاراً كاملاً فلا أروي شهوتي.
ببالي أن آكل الحرب، قلت.

* زيّاح، طواف.
* سيّدة الحفّة، موقع كنيسة في لبنان



اللعبة

نقاط المطر، بطيئة تنزل في مياه البركة، على البلاط الوسخ، في المصطبة التي لا تعيش فيها الزهور، وتنزل على أوراق شجرة الفيء فتهتزّ كل ورقة تصاب وترتجف طويلاً.
نقاط المطر هذه غير موجودة إلاّ لعيني التي تراها. للآخرين هي شتاء، أمّا لي فهي كيان حيّ أفتّش له عن إسم، عن هويّة.
كئيبة نقاط المطر قلت. تمضي في طريقها، حتى ولو كانت عيني تغدق عليها نعمة الحياة، تخلق لها شخصيّة، تسميها، تدل عليها. لأن عيني لن تكون كافية لحياة النقاط وشخصيتها وإسمها.
عيني تتسلّى، ووجود النقاط هشّاً يبقى، حياتها سريعة الزوال، تنقضي بانقضاء حواري معها وإغفالي فعلها في مياه البركة وعلى البلاط الوسخ والمصطبة التي لا تعيش فيها الزهور.

وضع يديه على خدّي وشدّ بهما وقال: «ما تحبّين يا ابنتي؟» تطلّعت إليه مرتدياً ثوباً مدنيّاً. «أحب الزهور يا أبت؟» فشدّ بحرارة أكثر: «والبشر؟» «الزهور يا أبت الزهور». كانت عيناه عميقتين كالبحر. كدت أقول له: «أنت، أنت،» لكنّي خفت. كالبرق كان إحساسي. صغيرة كنت وكنت لا أزال أخاف البرق.
أحس هو أن اللحظة انهارت ولم يكن صيّاد كلمات فأنزل يديه وقال: «حب البشر ليست جريمة. حبّ أيّ كان وساعة كان وكيفما كان». وذهب.
كانت المرّة الوحيدة، قبل أن تكون أنت. معك ما انهارت اللحظات وما خفت. وأحبّك.
إبتسمَ لذكرى الحكاية، فكثيراً تعود إليه وكثيراً لا يصدّقها. أتراها قرأتها في كتاب؟

نسيتُ نقاط المطر.
تحرّرتْ النقاط منّي، اغتالت الأسماء التي خلعتُها عليها، واغتسلت من صفاتها التي لوّنتُها بها: البطء، الكآبة، وعدم الاكتراث. وللذتها، لذريّتها، لوجوب وجودها، راحت تنزل، وصرت أنا لها غير موجود.

– تكتب عن الحرب ولا تكتب عنّي.
– الحرب أخذت أحلامي ومصيري وعلى رأس مذراتها راحت تلاعبها.
– وأنا. وأنا؟
– أنتِ لم تأخذي ما أعطي لك أن تجعلي منه ساحة الزمن. أنت للآخر. قلوب اللوز له، والزبيب والصنوبر المنقوع له، والتبغ الطيّب تسرقينه عن موائد الموسرين له.
– أسرقه؟
– نعم. لأنك لا تأخذينه لي ولك.

– لكني لك: نظراتي التي لا تكلّ تفتّش عنك، تنهّداتي عندما ألتقيك، شفتاي وما يُعطى من جسدي لك.
– يا بلهاء، هذه مباحة. أنا عن غير المباح أفتش. أفكارك السريّة أعني، أفكارك السريّة التي تنتظره، التي كل سبت وأحد تزيّن له الدار، تزرع في المزهريّات زهوره.
– ولا يأتي!
– ليس المهم أن يأتي، المهم أن يُنْتَظَر.
– أحزنتني.
– مع ذلك لولاك لم تنته الحرب، فأمجّدكِ ولا أكتب عنك، لأنك ذات يوم تحرّرت منّي كنقاط الماء، وتفجّرت كالعاصفة، كالسيل، وفي أصابعك الناعمة، الناعمة، وضعت أفكارك السريّة تقدّميها إليه مع اللوز والصنوبر المنقوع والزبيب والتبغ الطيّب. إسمعي! لا تخبّئي التبغ حَدْ* عطرك. العطور تفسد التبغ والتبغ يفسد أحلامي فلا أكتب عنك.

نقاط المطر تقوى، حبالاً تصبح. «إبْقَي بطيئة قلت، غير مكترثة، نسيتك نظري لن يستعبدك، تحرّرتِ، أنا لاجئ منك تحت الشرفة». لم تسمع.

بدأتْ الحبال تطالني. هربتُ إلى الزاوية. تطاولتْ الحبال إليّ. التصقتُ بالجدار. أحسست على عنقي إحساساً لزجاً، إحساساً يُمْسَك. مددت يدي إليه.

البزّاقة بين أصابعي أتطلّع إليها. إلى قرونها، إلى أنفها وفمها المبهمين، إلى جسمها الرمادي، إلى بيتها الأسمر.
انكمشتْ القرون، انكمش الجسد. ابتسمتُ لها ورحت أتذكّر التعويذة التي كنت أرقيها بها وأنا طفل، في الجلّ الموحل، لتأنس وتخرج وتحاور، فغنّيت بصوتي البشع:
«يا مْريني ويا مْرونْ اطلعيلي بأربع قرون
إجا السلطان ياخدك بدّو صحن معكرون»

صوتي البشع كان صادقاً، أنِسَتْ به القرون فنبتت، وأحبّه الجسد الرمادي فخرج من بيته ومشى على يدي. لكنّي تقززت من الإحساس اللزج فرميت به في المصطبة العاقر فانقبضت البزّاقة عن حواري كما انقبضت نقاط الماء.

أجراس الضيعة تقرع. أجراس كنائس الضيعة الثلاثة عشر تقرع، تقرع أنغاماً، تقرع رنّات، فَرَحاً وحزناً معاً في دفن شعيا وإبنه.
أمس دخلت القذيفة بيت شعيا. قتلت شعيا وإبنه. قتلت شعيا وهو يأكل، قتلت ابنه وهو يصوّر على كتاب صلاة أمّه أرنباً بالحبر الأحمر.
كفرملات، لتنتقم لشعيا فتأتي قيامته، تفتّش عن مدفع تنصبه قرب المقابر، يطلق القذائف عشوائيّاً. القذائف في كفرملات أيضاً!! ومن كفرملات أيضاً!! يا الله كم صغر العالم.
سمعت أسعد يندب شعيا: «يا دْموع العين سيلي، ويا سْيوف البيض ميلي».
صوت أسعد كالصنوج. الدمع في حلقي. لماذا قُتِل شعيا؟ شعيا ماذا فعل؟ كان يأكل. هل يمكن أن يكون جزاء الأكل الموت، إذا سلّمنا أن تصوير أرنب بالحبر الأحمر على كتاب صلاة الأم جريمة؟
أكاليل من الضباب فوق الحرش، متقطّعة، مستوحدة، لا رابط بينها، تنفرط ثم تنعقد ثم تتناثر، ثم تتقارب فتتزاوج وتتكاثر في لحظات حتى لكأن كل شجرة تحوّش إكليلاً ثم تضفره لأغصانها وأوراقها سرادق عرس دون أهازيج.
هل مات أرنب شعيا المرسوم بالحبر الأحمر على كتاب صلاة أمّه!
ذات يوم سأكتب عن دم الشهداء. اليوم لن أستطيع. حبال المطر وصلت إلى الزاوية ولن أستطيع أن ألجأ منها.
«ولكن يا بليد ما دامت تطالك لماذا تنتظر هنا جباناً، متقوقعاً؟»
«وما أعمل ضدّ المطر؟ أبحدقتيّ أوقفه؟»



أهرب، على الأقل أهرب!
«ولكنه حيثما كان»
«أهرب في كل حال، تحرّك!»
«أمهلْني، سأهرب...» هربت.
هربتُ على الدرج الطويل، على الأوراق الميتة، على الأغصان اليابسة، هربتُ أركض، الحبال تجلد ظهري، وقى الله وجهي منها! دم الشهداء يستأهل أكثر من الكتابة، الشهادة في مستوى القداسة، لكن القداسة لم تبق دارجة. القدّيسون كلّهم قدامى، من الزمن العتيق. كل مئة سنة يطلع قدّيس في أزمنتنا، وبالكاد. كأنهم اصطفّوا على الرصيف وتركوا الطريق لغيرهم ممّن أحذيتهم مسمَّرة ووجوههم محروقة بالشمس.
– قل لي كلمات حلوة، قل تحبّني، قل تفتّش عني، أنا جائعة كلمات، شحّاذة كلمات أنا، بالكلمات أحيا.

* حَدْ، كلمة تعني في اللغة اللبنانية العامية جنب

– كلمات ليست جمع «الكلمة».
– أعرف، لا تخف، أنا لا أجمع خطأً، أعرف ما أريد. أريد كلمات.
– الحب مثل العلكة نبصقها عندما يذوب السُكَّر عنها، ونأخذ غيرها.
– أهذه قصيدتك؟
– لا، هذه معادلتُكِ أنتِ. لماذا تطعمينه الزبيب واللوز ومن أجله تسرقين التبغ الطَيِّب؟
– لكني أحبك أنت وكما يدخل البرق من خشب النوافذ هكذا تدخلني أنت.

لجأت من المطر إلى الفرن. الفرن يدلف. سطحه من تراب. يدلف نقاطاً كثيرة، كبيرة، سوداء كالرتيلات. يدلفها علي بلطف ومحبّة. خرجت منه ألبس ثياباً مرقّطة. تمخطرتُ على الطريق. قويتْ دعستي، تطلّعت إلى كل جهة. لم يرني أحد. ناديت: أنظروا إلى ثيابي المرقّطة. لم يصدّقني أحد.
حوّشنا بيوت الرصاص الذي أطلق في دفن شعيا.
بيوت الرصاص أكثر من قموع البلّوط.
الرصاص الخطّاط، الرصاص الحرّاق، الرصاص الخرّاق.
رصاص العرس الأَطيب من الملبّس.
رصاص الدفن الأَنقى من نغم الزمور.
المجد للرصاص ولصوته.
المجد لقوّته وحزم إرادته.
المجد له زينة الخصور والنحور والرجال والنساء.
ثوبي مرقّط ولكن لا رصاص على خصري. جبان أنا، على الأقل ملعون، أو أخرس.
هابيل قتل قايين. نعم هابيل، هابيل، أنا أقول لكم. هابيل هو المنبوذ، هابيل هو المغضوب عليه، أنا أنا أقول لكم. الحق أقوله صَدِّقوني. قايين هو الضحيّة، لا تغشّكم العصا الدّامية في يده.
– صباح الخير.
– الخيط الوحيد الذي يربطني بالحياة في منفاي.
– منفانا.
– وبعد المنفى؟
– حتى بعده سنبقى طويلاً نتصرّف كأننا فيه.
– ولن تحبّني!
– احترق مستودع في المرفأ، المرفأ قرب بيتنا.
– غيّرت الحديث.
– دونه، دون أشيائي أشعر أنني في منفى.
– بيتكم هل احترق؟
– كأنه احترق ما دمت أخاف عليه أن يحترق: كتبي المصفوفة كأيام السنة، صحوني الصينيّة، القنديل الأزرق الذي يعطي الجدار لون عين الفتاة.
– تعيش بالهاجس، تعيش بالامتداد.
– لولاه لما كان منفاي منفى.
– لكني لا أفهمك. في بيروت كنت تحلم بكفرملات: بشجرة الفيء، بالبركة المدوّرة، بالدرابزين المعركج، بالبلاط المعرّق، وها أنت في كفرملات تحلم ببيروت.
– أنا لا أحلم بكفرملات ولا أحلم ببيروت، أحلم بما تركت في أشيائي وأشيائي موزّعة.
– وهكذا كُتِب عليك أن تبقى دائماً في منفى؟
– لا! بلادي الأصلية موجودة، وإن كنت لا أعرفها. وإن كنتِ لا تعرفينها، وأنتِ وحدكِ من يستطيع أن يحملني إليها.

كالثعلب، كالجرادة، كالدوري، أدور في زواريب كفرملات طريداً أفتش عن مفاتيح. الدروب كلّها أبواب، الأبواب مقفلة، أقفالها صدئة، الريح في الصنوبر، خشّة، خشّات، صوت غول أجشّ، عباءة خشنة تمسح التراب. أوراق الصنوبرة اليابسة تنزل مع الرذاذ كالرذاذ. الأرض تحت الصنوبرة فراش أسمر، رائحتها ملء صدري، رائحة ورق الصنوبر اليابس مفتاح. مفتاح جديد بيدي هو، مفتاح أي من أبوابي؟.

– قل لي كلمات كتلك القديمة، كلمات كالخير، كالشر.
– مسكينة الكلمات احترقت ولن يكون أنا من يذري رمادها.
– مكسور حوارنا اليوم.
– على رأسينا علامة فارقة، كالمطلوبين من العدالة. يفتّشون عنّا. يجب أن نتخبّأ.
– ولكن في الحرب يجب أن يحب الناس بعضهم بعضاً. من منا يعرف متى سيموت؟
– في الحرب وغير الحرب من منا يعرف متى سيموت.
– قل.
– فلنخزن رماد كلماتنا في صرّة نبقيها ذخيرة لأيام ستأتي. واسكتي الآن! اسكتي.

أولعتُ عود الكبريت. جمعت بالعصا أوراق الصنوبرة. رطبةٌ الأوراق لن تشتعل. رائحة ورق الصنوبر اليابس مفتاح. مفتاح أي من الأبواب؟ لا أعرف. يا رب ساعدني! تعبت من الوقوف في العراء. تعبت من الدوران ملكاً دون مملكة. العراء بارد أحياناً وأحياناً حار وأنا بثيابي نفسها.
رائحة الصنوبر مفتاح. مفتاح أي من الأبواب الألف هي؟
الحرب تقرع الأجراس على جميع المحاور. الحرب؟! غريب كيف صرنا نتكلّم عنها كأنها خِلّ أو رفيق. من بعيد أسمع أصداءها. على أصواتها الحقيقية أنزلت بوابة الحديد. لو لم أفعل لاغتالتني، لاغتالتني غير ما اغتالت من خطفوا وقتلوا عشوائياً وقنصاً، اغتالتني في الحي الباقي مني: رصدي أبوابي مع سلسلة مفاتيحي. الرائحة مفتاح أي باب! إنْهَضْ، جَرّبْ! لا لن أنهض. لو كان باباً يُفتح لفتح. مسحورة المفاتيح التي خارج السلسلة. لو كان الباب يفتح لركض المفتاح إليه تلقاءً.

أربع طلقات مدفع.
شاع نظره على الأشياء حواليه: الصنوبرات، شجرة الصفصاف، أشجار الحور، لأول مرة ينتبه ان الحور يتعرى من أوراقه، ما أجمله لابساً، وما أبشعه عارياً.
أولع الأوراق، غصّت النار، تمطّت، وقعت. علّى الكومة بأصابعه، نهضت النار تدبّ كالعجوز، ساعدَها بالعصا، وقفت تلوّح كالسكران. هزَّ العصا، ضاقت النار، هربت إلى أعلى، إلى الأوراق المتشابكة، تعلّقت بها، علقتْ، فرحتْ، زغردتْ الأوراق تعربد.
شمّ الرائحة، تذكّر. تراءى له الباب.
كنّا معاً في حَرْج عين عيسى، كان الطقس ضباباً، وكانت هي بردانة. جمعت بيدي أوراق الصنوبر، طلعت الرائحة إلى صدري. تطلّعت إليها. عيناها مرايا تأكل وجهي. تركتْ يداي أوراق الصنوبر، ألقيتُ بهما على وجهها. لم تخف، وكانت اللحظة، وكان الزمن الذي يغرس جذعه في أعماق الأرض فتطال غصونه آخر السماء.
شممت يدي: عليها رائحة الصنوبر ورائحة التراب بعد المطرة الأولى. أولعت الأوراق. النار بيني وبينها، النار على وجهها طيوف راقصة، عيناها مرايا ملوّنة، مضاءة. النار فيَّ تسرع بكلمات لن أعرف يوماً أن أقول مثلها.
الرائحة مفتاح، مفتاحها هي، أفتش عنها ولا أدركها ومن بعيد أصرخ:
– قولي أحبك
فتقول:
– كمجانين الحكاية
لكنها لا تغرّب عينيها، فأرى وعيها ولا أصدّقها، عيناها اللتان لا تغيبان لماذا تفتّشان عنّي ومتى وَجدَتاني لا تلقيانني؟!
– أنت للآخر، أنت للآخر لماذا تطعمينه قلوب اللوز؟

الريح تحمل المطر إلى وجهي، تحمله ماء لا قطرات، كأنه كف مجنونة، حيناً تصفع وحيناً تملّس. ضممت ردائي على جسدي. ركضت صوب باقة الصنوبر.
نصري يضرب بالفأس جذع سنديانة.
صوت الفأس على الخشب كصوت المعدن على المعدن
مع كل ضربة فأس صوتٌ من صدر نصري كصفير الريح على رأسه، أراح الفأس.
يداه على خصره. إبتسم.
– هذا رزق كنيسة السيدة يا نصري، حرام عليك أن تقطعه.
– حرام؟! هه.وما تعمل السيدة برزقها؟ هل عندها أولاد؟ المسيح على الصليب وهي تعيش وحدها في الصورة لا تبرد ولا تجوع ولا تتعب. أنا عندي عبدالله وبطرس وحنّا وكريم والست عفيفة وكلّهم يبردون ويجوعون.
وأخذ الفأس وأعلاها ولم يضرب، فأنزلها واتّكأ عليها وقال:
– العذراء أمّنا جميعاً، وصلّب بيده على وجهه وركع وراح يرتّل: «يا أم الله يا حنونة، يا أم الرأفة والمعونة». أسمعت يا أستاذ، أم المعونة، العذراء تُطَلِّع الخاطئ من الجحيم وأنت تقول إنها لا تسمح بقطع سنديانة تدفئ برداني الحرب؟.
من حَدْ باقة الصّنوبر تُسمع أصوات المدافع مرّتين: صوتها الحقيقي وصداها من بطن الوادي، وتُسمع ضربات فأس نصري.
باقة الصّنوبر لا تُلجئ، الماء يسحّ على قبّعة نصري ويديه وعلى شعري ووجهي.
قال نصري: اهرب، اهرب اسمع مني، سينزل الثلج، أنت في الوادي، ستتزحلق على الصخور، أهرب، إسمع مني، مَرْبى المدينة أنت، لن تعرف أن تصل، ستقع وتكسر رجلك. خذ هذا الغصن كنّس به دربك من البَرَدْ. أهرب أسرع.
تسابقت مع الثلج، الحق مع نصري، كلّ الحق مع نصري.

في الداخل شعرت بحرارة كنت نسيتها. رأيت الماء يتبخَّر عن ثيابي والبرد يتكسّر على زجاج الشبابيك في مباراة لا حكم فيها، أهوج، أعمى، يضرب دون قصد، دون هدف، والرعد يتواصل ويختلط مع أصوات المدافع.

جلست على كرسي واطٍ أصوّر بأصابعي المجموعة أشكال ظلّ على السجّادة، صور بيروت التي رأيتها في الجريدة أمس ولم أستطع أن أنساها، بيروت المحاربة، بيروت المحاربين، بيروت الهاربة، اللاطية ضمن أبنيتها البيضاء، بيروت الشوارع الميتة، شوارع الموتى.

على السجّادة ما زلت أرى الصورة. أنا بعيد عن الحرب. أسمع طلقات مدافعها فلا أميّزها عن أصوات الرعد.

كانوا يُغنّون دون فرح، يأكلون القمح المسلوق والنمّورة دون لذّة. كانت الساعة تركض فنقبر زمنها. نئده وأداً، أنثى تجلب العار، تجلب الحزن، تجلب الألم. الزمن الذي ضاع، ضاع وخرّب معالمه، أخفى آثاره، كيف نستدلّ إلى دربه.

الوجوه التي امّحت، الأمكنة التي ذهبت. الأمكنة ذهبت، هكذا ذهبت. على السجادة، أرى مطبوعاً: محارباً يلبس كوفيَّة ومحارباً يلبس قبّعة، ومكاناً ذهب. تفرّست فيه. ملأني الحنين إليه.

بقوا يغنّون.

أحبك!

من يستطيع أن يحب أيام الحرب! أنا أستطيع. أحب حيثما كان وأينما كان.

أمس قالت لي العجوز: رجعت كأنك طفل، على وجهك سيماء الأطفال وأحلامهم.

تصورتها حَدْ التلفون، فوق رأسها القنابل، ترفع سمّاعته تستحكي خرسه فلا يتكلّم، فتبكي وتخرج من الباب بالأسود.

مجلس الأمن يناقش قضية فلسطين

المدفع يناقش قضيَّة لبنان

جلّدتُ مع البرْد.

اضطرب الحوار في نفسي. أرى السياج يعلو حوالي ويدي قاصرة عن كسره.

إذا عشتُ ما يكون تأثير انفعال هذا الزمن عليّ؟ هذا الزمن الذي عمّرتُ فوق أسسه ألف مدماك، من أية فسوخ فيه ستعود أيامي فأدركها وأعبّر عنها. من الضروري أن أعبّر عنها.

الزمن المُعَمَّر من الحب تفسّخ هو أيضاً.

الزمن المندلع اللسان من حلم تهاوى.

الزمن الذي أقرأ خرائطه على الحيط وأتساءل هل يمكن أن يُلحم.

قمتُ عن الكرسي، لا أرى حولي إلاّ أحذية الجالسين، الأحذية تغني مع المغنين، ترافق ألحانهم. الغرفة دافئة جدّاً، أحسست أن جلدي يلتهب، مشيت صوب الشرفة، هدأ البَرد.

ومضات المدافع تتوالى.

هل يمكن لصورة أن تجعلني أحسّ بالحرب حتى هذه الدرجة؟

الزمن محا خرائطه، زال. فكأن جميع الذين أحببتهم ماتوا، كأن جميع ما حلمت به انقضى.

ومضات المدافع مهما أصابت لن تقتل شيئاً قلت، لن تقتل مهما دمّرت، ما في قلوب المتحاربين، لن تقتل الحقد، لن تقتل إرادة القتل.

كوماً كالتلال رأيت الزمن، كوماً سوداء، نتنة الرائحة، عفنة، مدوّدة، خالقة جراثيم، كوماً من الهزيمة لن يزيلها شيء من قلوب الذين لم يموتوا.

فتحتُ الباب، لحقتْ بي، ركضتْ إليّ، أمسكتني بيدي. يدك كالثلج قالت، وأعطتني مظلّة، تطلّعتُ إليها، ابتسمتُ كما تدمع العين، فتحتُ المظلّة.

المطر عليها، ينقر نقراً، كمناقير آلاف العصافير على بيدر فلاح عجوز لا يقدر أن يطردها. فلتأكل العصافير، فلتأكل.

السيل يجرف التربة عن الجلول، السيل كجعدات بطن الحصان تحت قدمي، الطريق فارغة، مستوحدة، طويلة.

رامٍ خلف متراس رأيته في الصورة، رأيت ظهره. لو رأيته بعد ألف سنةٍ لعرفته.

جلست بثيابي المبلّلة على المقعد العربي في زاروب بيتنا. حدّي محفظتا ابنَتيّ. غداً تذهبان إلى مدرسة غير مدرستهما، مع رفاق غير رفاقهما. شعور بالمؤقّت انتظار للزمن ذاك، ذاك الذي تركناه منسوجاً كالسجّادة العجمية، مهما كثرت أخطاء تفاصيله، يرى من بعيد مرتاحاً، منسجماً، لا تتهرأ خيوطه.

البَرْد في ظهري وفي يدي وفي جسدي كلّه، ثيابي نشف ماؤها عليها، أرتَجفُ منحنياً فوق عروق بلاط الزاروب، ذليلاً، متروكاً، مخنوق الصوت، إنساناً، فرداً، خارج اللعبة.



الوليمة

موسم الشتاء أيتها الحرب هل ينتهي؟ أيتها الحرب!
الحرب كـــل شـــيء. الحرب المَعْرِفَة، الحرب المُعْطية، الحرب الآخِذة، الحرب القُدْرَة، هي حيثما كان، في سمع أي كان وفي قلب كل إنسان.
هي نسأل، عن الشتاء وعن الطحين وعن الضوء وعن الدفء.
موسم الشتاء قاس أيتها الحرب فهل ينتهي؟
الحطب فقط في ضيعتنا بقي خارج مشيئة الحرب. الحمد له جعلها ليست لله.
الحرب، هي، لن تنتهي. ارتاحت على عيوننا، ارتاحت في بيوتنا، على حقدنا وبهيميتنا، هي وليمة ساحاتنا، وضيف الشرف في قاعاتنا، وبعينها الواحدة الفاغرة تتطلّع وتستمتع بالدنيا الخراب.
موسم الشتاء ضحك اليوم، بالساعد المرنّ بالأساور الذهبية.
كشحت الشمس طبقة، طبقتين، ثلاثاً من الغيوم. أصابعنا تتحرّك كأصابع عازف على قيثارة بصماتها. طبعت كالقبلات على قرميد بيوتنا.
أعطنا أساورك أيتها الشمس. الذهب يخبّأ لأيام الحرب.
الدروب نشفت حجارتها. لم يبق من وحلها سوى رطوبة بُنيّة حيث التراب. أعشابها الميّتة كعجوز تنكر عمرها تكمّشت بقطرات لؤلؤ تتزيّن بها، لكنها غصباً عنها كانت تقع قطرة اثر قطرة.
على الدروب نلمّ صَدَقات الشمس.
ما أكرمك يا رب تشرق علينا شمسك نحن مستحقّي الجليد، الكفّار بنعم عقلك ونعمة حريّتك.

وجهه أسمر، أسمر، أعرف من هو. لكن ما اسمه؟ لأول مرّة أشتاق أن أعرف اسمه. وجهه أسمر سمار التبغ الأسمر، شعره أشقر، عيناه كسماء الصيف. ينزل الدرب الرمليَّة الطويلة، حذاؤه المُسَمّر يحفر في التراب الرطب أوزان قصيدة. كنزته حمراء، بنطلونه أسود. في كتفه علّق بارودة طويلة. ما عمره هذا الفتى؟
على الدرب وقفت البنات يتطلّعن إليه يمرّ كلهب مدفأة.
– إلى أين أيّها العسكري؟ إلى أين؟
قلت له.
– تمتّع بالشمس، عمّا قريب يسترجع موسم الشتاء الأساور ويمحو البصمات، ويكبّل الأصابع وتختفي الشمس. انتظر رواحها وتروح.
لكنّه لم يلتفت، وانتهت الدرب الرملية، وعلى مشارفها، بين الصنوبر غابت الكنزة الحمراء.
– أيّتها الحرب، أيّتها الحرب، عاد موسم الشتاء.
قلت، ثم قلت:
– ومن قال كان انقضى؟
في الشتاء كل شيء يشبه أي شيء. الغيوم تحجب الفَرْق. الفَرْق ينزل إلى الظلال، الشَبَه يصعد إلى الضوء. الكنزة الحمراء ضوء.
– أيها الفتى، سيتميّزونك بالكنزة الحمراء ويقنصونك. اشلحها، اشلحها يا أبله وتمتّع بالشمس.
أصوات المدافع لم تصمت. وكأنها لن تصمت. كفرملات تتسمّع إليها خاشعة، راكعة، كما في كنيسة كبيرة. جريس قاعد على حافة المصطبة، منحن، مرفقاه على فخذيه، معطفه يغطّي المصطبة، وقبّعة الصوف تغطّي رأسه ووجهه ولا تبقي مكشوفاً منه غير أنفه وعينيه. الأنف والعينان لا تكفي للأخذ والعطاء. المهم هو الوجه. يجب رؤية الوجه. لا يمكن التعاطي مع رمز ولا مع جزء. الحديث حديث ملامح ولا ملامح إلاّ على الوجه.
قال جريس: ألن تنتهي هذه الحرب؟
إبْنا جريس في المعركة.
– ستبرد يا جريس. أدخل.
سطح بيت جريس لم يبق تراباً. شيء من جريس الشتاء مات: جريس الذي كان يحدل سطح بيته.
إبناه مدّا على السطح حصيراً من الباطون وتركا له المحدلة بلا قوس، هنا، لا معنى لها إلاّ أنّها موجودة، تماماً كما تركاه وذهبا إلى الحرب. لماذا الحرب أيّتها الحرب؟
قال جريس: حرب الاربعتعش جعنا فهربنا إلى السهل وعشنا. في هذه الحرب نخاف فإلى أين نهرب؟
الحرب حيثما كان قال جريس. حيثما كان. إلى أين نهرب؟
إبنتي الكبرى تسبح كالسمكة. ماء المسبح أزرق. البحر كحلي منقّط بالأبيض، موج وزبد. زوجته مرميَّة كالقفَّة على المدرج تتشمّس لتسمرّ. شفتها العوجاء تدخن سيكارة.
وأنا، على الكرسي الممدود، مستلق أبني حلمي مع البعيدة، أكتبه بالهيروغليفيَّة، فلا يعرف أنْ يقرأه أحد سواها. تعرف الهيروغليفية هي، إنّها قديمة، قديمة، إنّها ملكة اسمها حتشبسوت.
وأتت الحرب فأخذت حلمنا إلى المعركة، حلمنا أيضاً يلبس كنزة حمراء.
عاد إبنا جريس. سخّنت أمّهما الماء، تحمّما، حلقا وركضا خلف البنات. نام جريس أربعاً وعشرين ساعة وقام، فكرّج المحدلة برجله على السطح وغنّى: «رجعوا، رجعوا»، ومشى مع المحدلة على المحدلة، شعره في الهواء، قبّعة الصوف بيده منديل يهوّل به كأنه رئيس الحلقة في رقصة الدبكة.

تُمطِرُ رذاذاً.
لا يُبدأ بالفعل المجهول يا شاطر، ولا يُبدأ بالواو ولا، ولا. أنا ضدّ القواعد، ضدّ السجون، ضد الحصان المربوط والمُسْرَج والطائع قلت لها. أنا وأنت القاعدة وما عدانا شواذ. لكنها لا تفتأ تفتح على حضنها كتاب الصرف والنحو وتقرأ فيه، وبأصابعها المرتجفة تدلّ حتى إلى فواصله.
تمطر رذاذاً.
جريس يرقّص المحدلة. راديو عمشيت يقول: تبادل إطلاق نار بين محمد الحوت والسوديكو. راديو الصنائع يقول: تبادل إطلاق نار بين السوديكو ومحمد الحوت. أطفأت الاثنين.
لكنّهما سيعودان إلى الحرب يا جريس قلت في قلبي، وتعود أنت مقنّعاً إلى المصطبة.
أتمشّى مع إبني على كورنيش المنارة. أخذت يده. بدأت تكبر. بدأ لا يكون صغيراً. نظرت إلى وجهه. قريباً تطلع ذقنه. شددت يده. سيكبر ويذهب في سفينة كهذه. السفينة مضاء عروس على أدراج مذبح. بيضاء تتمخطر بأبّهة. يذهب في سفينة كهذه على أحلام لن أكون إحدى موجاتها. شراكتنا ستنكسر عنده. عندي فقط ستستمر. سيذهب كالسفينة وأحياناً قليلة يعود.
توقّفنا. نظرت إليه، شفتاه السميكتان، عيناه الزرقاوان تضحكان. مسحوراً ينظر إلى البرق. البرق يفلح الأفق ثلماً طويلاً، مزروعاً غابات سوداء تركض أشجارها إلينا. البرق يمزّق الغابة بالطول والعرض والعمق. يشعلها. اقشعرَّ زندا ابني من الدهشة، أغمض عينيه.
– خائف؟
– لا!
– أعرني عينيك قلت، ننظر معاً، نشعر معاً. كم أنا بحاجة إلى الرؤية بدهشة عينيك.

وضع جريس يده على كتفي، مكشوف الرأس، لا معطف على كتفه، السبعون في عينيه سبعون شمعة مضاءة عيداً في وليمة عودة ولديه.
«وكلما عادا أضأتُ لهما الشموع السبعين، وكلما عادا ولدتُ من جديد معهما ورقصت على السطح للضال الذي وجد».
تمطر رذاذاً
ونحن واقفان في البورة اليابسة العشب نسمع أصوات المدافع.
شجرة الفيء أمام بيتنا لا ورق فيها. كلّها براعم. وقلت: أحب عري هذه الشجرة، إنه أجمل من عري الدالية.
قال: كعري العشيقة الجديدة.
ولمع في عينيه ضوء الشمعة الحادية والسبعين وتمتم:
– أدخل، ستتبلل.
– وأنت؟
– أنا الفرح يحميني، الفرح ضدّ المرض وضدّ الجوع وضدّ الموت. الفرح هو القيامة. وقفز تحت شجرة الفيء، فلحقت به ودخلنا القبو المفتوح: أكوام الحطب تنطح سقفه.
– من قال سنعود إلى الحطب؟
– الحطب أنقذنا، مع ذلك سوف يأتي يوم وننساه.
ألن أكون لكَ كما الحطب أيام الحرب؟ فتقول في ذات ساعة: كانت الحرب. وكان الحطب، وكانت؟
– وهل يغتال الزمان ما لا يقدر أن يطال؟
– يعني؟
– يعني أن ما بيننا خارج الزمان إذا شئت له أن يكون كذلك.
وتطلّع إلى عينيها، لم يعرف كم من الوقت تطلّع، وضاع عمره فيهما ضياع التائه، ضياع الشاعر، ضياع الخالق.
– أحب شعرك الرمادي.
– ليتك لا تحبّين شيئاً معيناً فيّ.
– لِمَ؟
– حبّ العلامة يمضي مع العلامة، وأيّة علامة إلى ذهاب.
– مع ذلك أحب شعرك الرمادي.
– الشعر الرمادي أوّل طريق الزوال.
– ويحييك حبّي ويقيك الزوال، ويفتح أمام عمرك طريق الأبد. أحبّك أحبّك.
كانت الشمس برتقالية تدخل الغرفة من الشبابيك فتلوّن الجدار وتلوّن وجهها:
«أيتها السنبلة» «أيتها السنبلة» ناداها.

الحطب ينطح سقف القبو، جريس قاعد على جذع سنديانة، وهو، مستلق على الكومة، شجرة الفيء تنقّط على الأرض نقاطاً كبيرة مجمّعة تنزل على هواها.
«أكره القواعد، أكره السجون، وأحبّك سنبلة نابتة في الأرض الخراب».

تجاه القبو، تحت الشبّوق، مربع القرميد يغلي بالحركة. فارس على الشوار يدخّن. أحياناً، يقترب من الباب المقفل، ينصت. طفلتاه تدوران حوله، الصغرى تبكي، المخاط يغطي شفتيها وذقنها. ملّسَ شعرها ومسحَ دموعها ومخاطها بكمّه، وحَضَنها وهو يشدّ.
– يا جريس ما يفعل فارس؟
– ينتظر زوجته.
– وأين زوجته؟
– في المربع.
– زعلانة منه؟
– لا! تضع.
جارتنا تضع. وحدها تضع. كالغنمة، زوجها لا دور له إلاّ الانتظار. وحدها تضع. لا تصرخ ولا تُعوِل. وددت لو أسمع صوتها. لم أسمعه. تصوّرتها تعضّ يدها، تشدّ باللحاف. تتلوّى بحركات من تفعل الحب. بعد قليل يخرج طفلها فتغسله وتحمله وترقده حدّها. تستقبله الدنيا دون هدايا، دون احتفال، غداً يركض بين الجلول ولن يخاف، لا من الكلبة، ولا من الحمار. حتى ولا من الرتيلاء.

– جريس! ما اسم الفتى الأسمر، الأزرق العينين، الأشقر الشعر، اللابس كنزة حمراء والحامل بارودة طويلة والذي راح على الدرب الرملية واختفى على مشارف الغابة؟
– أنطون، ابن أسعد الأفريقي. أنت تعرف أباه.
– عندما مات، نعت زوجته البطرك فأرسل إليها رقيماً.
– الأفريقي يستأهل الرقيم. ترك لأولاده عشرة ملايين ولم يكن يعرف أن يعدّ حتى العشرة. بحرب الأربعتعش هربنا معاً إلى السهل. كان عمرنا تسع سنوات. كان معه خمسة أرغفة تزنر بها حول بطنه وكان ينام عليها كي لا يسرقوها. بعد الحرب سافر وحده. يستأهل الرقيم أسعد ولو لم يكن البطرك يعرفه. إبنه كالضوء يحمل بارودته القديمة ويتملّق المقاتلين ليأخذوه معهم. حظه كبير أسعد، مات قبل أن ينتظر ابنه على الدرح وتحت الحافّة وعلى الطريق، ليرجع من المعركة. طول عمره كان حظّه كبيراً أسعد.

الحب كالموقد، يخبو متى خفّ فيه الوقد، لا تنسيني، مرّغي نظراتك على عيني، وكالحورة الفتيَّة انحني على وجهي. لو تعرفين كم أحب ورق الحور. الا تحبّين وجهه المطلي بالفضّة، يتلألأ مع وجهه المطلي بالنحاس المعتّق؟





قال جريس: ستثلج.

– كيف عرفت؟

– الغيم أغبر، العصفور أغلق جناحيه وغزّ إلى ملاجئه. أنظر إلى هذا الرف*، ألا تراه كيف يهرب؟

– يهرب؟ لا أعرف! أراه يطير.

– ما أكثر جهلكم أهل المدن ولو تخرّجتم من ألف مدرسة. ألا تفرّق بين الطيران والهرب؟ ستثلج قلت.

في القبو المشرّع، يلعب الهواء، يحمل معه روائح الأرض الرطبة والعشب الميت وحطب الصنوبر الأخضر ورائحة تبغ غليوني. وأحبّك.

تفعلين الحب كبركان وتفكّرين فيه كقدّيسة.

– نحن من نسل يتزوّج متأخراً. وأنا سأتزوّجك اليوم في سني الثلاثين وأفعل معكَ الحب كقدّيسة وأفكّر فيه كالعاشقة. أهكذا تريد؟

أتراكِ دائماً في حاجة إلى وجهين وإحساسين وتصرّفين أيّتها السنبلة؟

– لماذا تسمّيني السنبلة؟

– لون بشرتك كلون القمح، وانتظاري عطاءك انتظار السنبلة أن تصير رغيفاً.

كنت أعرف أنّها تتحاور مع سواي، كنت أعرف حاجتها إلى كلمات السلوى، كلمات تشبه كلمات الحب، بها تسكر ومنها تتّخذ خميرة لأحلام لياليها التي لا تدفأ. جائعة ملكيّة سنبلتي. لكنّي، أنا، من زمان عرفت أن لا ملكيّة ولا ملوك ولا ممالك. أقصى الذكاء، وأقصى الكبرياء، وأقصى المتعة، ووليمة اللذة هي أن تحب ولا تخيب، وكي لا تخيب، أعطِ، أَحببْ عطاءك، أَحببْ نفسك، كن نرسيسيّاً من خلال سواك وتَخْلَص. ما همّت التسميات!

– يا جريس سأتركك، أنا ذاهب.

– إلى أين؟ أذهب معك.

– لن يذهب أحد معي.

– طيّب خذ معطفك.

– لن آخذ شيئاً.

– ستثلج قلت لك.

– لن تثلج وستعود الشمس ويعود الفتى الأسمر لابساً كنزته الحمراء.

هزّ جريس رأسه دون أن يرفعه عن عيدان الحطب المكسورة في أرض القبو.

أخذت قضيباً ومشيت وقلت:

– انتبه يا جريس، لا ترم بأعقاب سيكاراتك بين الحطب.

– عليك الحيف! جريس يقال له: لا تحرق ولا تقتل ولا تهدم؟ أنا ناطور الحياة، ألا تراني كيف أنتظر ولديّ كل يوم؟

ووقف ومدّ أصبعه في وجهي وقال:

– صَدِّقْني، صَدِّقْني، لو لم أكن أنتظرهما مع كل خفقة قلب لما كانا يرجعان ودائماً يرجعان وسيرجعان، ونبصق على الحرب.

– نبصق على الحرب.

– رقص جريس.

الضباب واط يلحس الأرض. اتّكأت على القضيب في ساحة الكنيسة. ساحة الكنيسة مقفرة. الكنيسة فيها بعض الأوراق الفتيّة: ربيع متقدّم. من بعيد، هدير سيارة وحاكٍ في بوق ينادي: «أيها المناضل اقتل لتعيش، اتقن صناعة الموت تتّقن صناعة الحياة. أيّها المناضل!». وغاب سمعي.

«لا أقدر أن أتقلّد» أرميا «أنا ضدّ الموت عفويّاً، وضدّ الموت بالشهادة تفكيريّاً. أنا مع الوطن الوسيلة لا مع الوطن الغاية مبدئيّاً، أنا ضدّ وطن هو قربة لدم أبنائه وأبناء جيرانه فعليّاً. المجد للانسان وليس للأوطان، وهل المجد في أيّ حال إلاّ كأس من العرق تسكر ما دامت في البطن؟».

مع ذلك. بقيت هي تغنّي للمجد.

استلقيت على حائط الكنيسة. أحسست كأنه سينهار. حائط الدنيا ينهار. الله ليس في الكنيسة قلت.

الله الناظر حرب الأوقاف، أوقاف الاحتكار، أيّ احتكار. الله ليس في الكنيسة، مع أن النساء زنّرنها بمناديلهنّ الغالية، مناديل بيضاء، حمراء، خضراء، صفراء، زرقاء، شلاّل ألوان مربوط إلى بعضه البعض. منذ شهر زنرنها. تأتي الحرب والله لا يرجع.

دَخَلْت. الكنيسة باردة، الصور فيها باردة، التماثيل باردة، المقاعد باردة. قعدت. لم يحاورني أحد. الكنيسة فارغة.

من داخلها تسمع أصوات المدافع مضخّمة. الكنيسة نقض المدفع.

مع ذلك كانت تتلقّف صوته، تلعب بصداه. تلعب؟ وهل في الدنيا أكثر جدّية من اللعب؟ اللعب هو العمل الأكثر جدّية بين كل ما نفعل. وهل نعطي بأكملنا إلاّ للّعب؟ لا شهوة إلاّ فيه، لأنّ كل لعب يفترض غالباً وليس أشهى على الانساني من أن يكون غالباً. الحرب لعبة. لعبة حمراء، وليمة دم. جدّية حتى الموت. يعني بلهاء بله كل ما يؤدي إلى العدم. ليس أجمل من الحياة.

تمدّدت على المقعد. شممت رائحة القدّاس الذي غادر، أغمضت عيني؟ أحسست بيد قاسية تهزّني. رأيته في ثوبه الأسود واقفاً فوق رأسي: الكنيسة ليست مكاناً للنوم. قال.

قلت: الكنيسة مكان للحريّة.

– أيّة حريّة!

– هنالك حريّة واحدة، حريّة القول والفعل والفكر.

– هذه حريّة الكفّار، إذهب من هنا أو احتشم.

– هل النوم قلّة حشمة يا أبت؟

– نعم! في حضرة الله.

– الله! لكنّ الله في كل مكان، وفي السرير أيضاً.

– أصمت، أصمت، بلا فلسفة. حريّة وفلسفة وكلام بلا معنى.

توكّأت على قضيبي وخرجت. الكنيسة التي تركها الله لخدّامه، كالبيت الذي يتركه ذووه. لا يعتني بالرزق مثل صاحبه.

ركضت ألاقيها، الحرب حيثما كان، وحيثما كان الربيع المتقدّم، كان بابها مفتوحاً لم أطرقه، هي أيضاً حيثما كان.

– ما بك؟

– مطرود من بيت الله.

– وما أخذك إلى بيت الله؟

– زيارة عابر سبيل.

– تكذب.

– صحيح كنت أكذب على الكنيسة، وأنام فيها، لذلك طردني حارسها.

– قل الصحيح.

– والله أقول الحقّ، ذهبت لأصلّي.

– من أجل ما؟

– شفائي.

– من؟

– أملي ودوري.

تطلّعت إليّ.

* الرف، كلمة تعني في اللّغة اللبنانية العامية سرب الحمام.

– أملي بالخلاص الحقيقي الحرّ، ودور الشاهد العاجز على الدنيا الخراب.
– وصلّيت؟
– لا، لكن سأصلي، أنا لاحق بالفتى الأسمر.
– مجنون.
– ألحق بالفتى الأسمر، اللأبس الكنزة الحمراء، أشلّحه كنزته، ألبسه ثيابي. سيتميّزونه فيقتلونه.
– ابق معي، ابق قليلاً.
– لن أبقى.
– أترك للفتى الأسمر حلمه. لا تفسده عليه، الموت ليس قضيّة إلاّ لمن لا يؤمنون. ما أسهله على المؤمن. أتركه لا تنغّص أنشودته.
أطرقت، وجلست، الغرفة كانت حقيقية، حيَّة: فنجان القهوة نصف الملآن، الاسطوانات المشرورة على المقعد، الكتاب المفتوح، المنفضة الكلّها أعقاب ال. تي. براون، المشاية، فوضى الحياة التي تتحرّك. أتُرى الحياة ليست سوى مجموعة فوضى، والتطلّع إلى النظام أتُراه ليس التطلّع اللاّواعي إلى الموت؟
قامت مبتسمة لبقائي، وَضَعت أسطوانة فيها قطعة أحبّها. انتظرتُ القطعة في شغف. فجأة وصلت، سمعتها، وددت لو تدوم أكثر. لكنّها لم تدم، الاسطوانة كانت تريد أن تقول أشياء أخرى لا أهميَّة لها.

الجوهري لا يقال طويلاً.
حملت القضيب.
– إلى أين؟
– أَلْحَقُ بالفتى الأسمر، أشلّحه كنزته، ألبسه ثيابي.
– ابق عندي.
– لا.
– ألا تحبّني؟
– الأمر ثانوي.
– هل جننت؟
– ...
– أم لأنّي تحاورت مع غيرك.
– تخطّيت مرحلة الملكيَّة.
– تخطّيتها عجزاً، وقلت بالحرّية عجزاً.
– وجبناً لم أعرف أن أتخطّى الحياة كما يفعل الفتى الأسمر.
– وستحاول؟
– سأحاول.
– قدّيس!
– لا! شيطان ويعبد الله.
– لن تذهب. لن تذهب.

خذني معك إلى الوليمة صرخت ابنتي. مشيت، فتعلّقت بزندي.
– ما لك ولوليمة السمسار؟
– خذني معك.
أخذتها معي.
أتعشّى مع السمسار الأبرش. يأكل بعينيه الشديدتي الزرقة، بشفتيه السميكتين. بأصابعه الثخينة، بوجهه الأحمر. يأكل بشهيتين. يأكل بعينيه.
منذ أسبوع حاول أن يبيعني لجزّار، تاجر جملة.
الوليمة وليمة أغنياء. المائدة طويلة كموائد الأديرة. إلى يميني الفتاة الشقراء، إلى شمالي المرأة السمينة السمراء. عن يمين الشقراء القنصل. عن شمال السمينة الملاّك. في رأس الطاولة ؟ تكريماً ؟ المحامي، في يده سبحة زرقاء من لون جوربيه. عن يمين المحامي صاحبة الدعوة. عن يمينها رجل الأعمال، يلبس عباءة سوداء وقبّعة استراكان. عن يمين رجل الأعمال زوجة القنصل، عن يمين زوجة القنصل العسكري المتقاعد يلبس الكاكي، لن يتنازل عن الكاكي، لا يقدر أن ينسى ذاته في الكاكي. عن يمين العسكري، صاحب الدعوة على رأس الطاولة ؟ تواضعاً –، السمسار في كل مكان، مثل الحرب.
السمسار يسعى إلى أن يبيع رجُل الأعمال صاحب الدعوة صفقة بلاط مسروق شغل إيطاليا. السمسار قانوني مضبوط، أتى بالمحامي ليحدّد شروط الصفقة. صاحب الدعوة لا يشتري مسروقاً. لماذا؟ هكذا! الفتاة الشقراء تتطلّع المحامي. المحامي يقول ليس للمال رائحة ويتنشّق من أنفه. السمسار يقول: المال ليس له وطن. رجل الأعمال يقول: المال لا يخضع لأصول أيّ دين.
صاحب الدعوة متشنّج، يعرف حقيقة ما يقولون، لكنّه لا يشتري مسروقاً. لأنّه يخاف. يقول انّه ليس من ضمن «النادي»، والذين ليسوا من ضمنه سَرِقتهم جريمة تقع عليهم.
وشوش المحامي رجُل الأعمال من فوق كرسي صاحبة الدعوة الفارغ ؟ صاحبة الدعوة في المطبخ ؟ صفّقتُ وقلت: حزرت ما وشوشته. قُلْتَ أن صاحب الدعوة جبان.
– لا لم أقل جبان.
– بلى قلت.
كرّ المحامي السبحة بيده، لعب بها. قال: «لا يجوز أن تفترض».
صفّقت مرّة أخرى وقلت: سمعت، سمعت، لم أفترض.
أتت صاحبة الدعوة تحمل صينيَّة فاكهة. سكتنا.
البيت مدفأ، حرارة البيت خانقة، رجل الأعمال يعرق ولا يشلح لا العباءة ولا القبّعة.
برد جوّ المائدة. قلت متمتماً: «البلاط سينام في صناديقه الليلة. سيبرد في المستودع حرام».
المحامي يتطلّع، السمراء حدّي، يتكلّم عن العدالة والظلم وينتصر للأولى. السمسار يأكل كلمات المحامي، يسمسر بها. رجل الأعمال يتحدّث عن شرف الربح، العسكري عن النبل في القتال. الراديو يذيع أن القنص عاد إلى جميع المحاور. القنصل يتنبّأ بما ستؤول إليه الحرب، المحامي يدلي بنبوّات معاكسة. المحامي صوته أمتع ونبرته أقوى وكلماته أظرف. الشقراء حدّي توشوشني: «يا الله كم يعرف المحامي أشياء».

انقطعت الكهرباء. ابنتي ومارك يلعبان. مارك شاعر، شعره في الهواء، قميصه مفتوح، حاف، يزيّن البيت: غيّر أمكنة الشماعد، غيّر أمكنة المزهريّات.
الشموع في البهو تختلج، قنديل الغاز الكبير على المائدة يخفق نوره.
زرع مارك أعناق الزهور في المقاعد، زرعها في الشبابيك.
ابنتي رسّامة، استعارت كتاب قراءة مارك، فتحته على الطاولة، صوّرت عليه حكاية استريكس ابن اختها الأصغر.
المحامي يتحدث مع المرأة السمينة. العسكري مع صاحبة الدعوة. القنصل يحلّل في صمت، عاقداً الحاجبين. رجل الأعمال والسمسار يتحدّثان عن الخيل. الفتاة الشقراء قشّرت تفّاحتين أطعمتهما المحامي.
– لماذا اثنتان؟ قلت.
– واحدة عيب! أجابت.
– لم عيب؟
– تفّاحة واحدة ترمز إلى فعل حوّاء.
علا الحديث عن الخيل. أكلنا أذناب الخيل.
شعاع قنديل الغاز على نصف وجه الفتاة الشقراء. إبنتي ألصقت رسومها على الجدار، مارك صوّر على البلاط بالطبشورة دوائر دوّامة تغشى من الدوران وكتب إسمه على ذوقه تحتها.

ليل كفرملات أحمر، الرصاص من كفرملات يقوّص السماء.
ليل كفرملات يُعول. الف صوت من ألف حنجرة تبكي.
ليل كفرملات نهار. الناس في الطرقات.
ليل كفرملات مجنون. المصابيح تركض فيها على الدروب.
ليل كفرملات أعمى. الوجوه لا يتبيّن بعضها البعض الآخر.
كفرملات وادي القيامة، أجراس كنائسها تقرع حتى لتنكسر.
مات الفتى الأسمر.

قال السمسار: أسفي لكل هذا البلاط. ضيْعان هذه الصفقة.
قال المحامي: لا تخف، نبيعه للحزب.
قال رجل الأعمال: الحزب يضع يده ولا يشتري.
قال المحامي: صداقاتي فيه كثيرة.
قالت الفتاة الشقراء: يا الله كم عنده صداقات.
ابنتي ومارك خربطا الزينة، مزّقا الصور، محوا الكتابة، وعلى البلاط صوّرا بارودة طويلة وكنزة لوّناها بسائل تجميل الأظفار الأحمر أخذاه من محفظة الفتاة الشقراء.

صرخت كالمجنون: «قلت لكِ سأنزل وأشلّحه الكنزة الحمراء. الكنزة الحمراء دلّت عليه، قلت لك سيتميّزونه يا زانية».

ولْولت الفتاة الشقراء. عيناها بركتا دم. قامت عن المائدة، لَحِقَتْ بها يد المحامي.
لماذا تبكي زهرة الموائد؟



داعبت اليد شعرها بالسبحة، حاورت خدّها بالهمس.
لماذا تبكي جميلة المعابد؟
وقف المحامي، قاسياً، متهماً بسبابته وصوته الرزين الطفلين: «سرقا لون الزينة الأحمر ورسما به خطوطاً لا معنى لها على الرخام».

الاقحوانة

السجادة أكلت الصاروخ، السقف أكل شظاياه، الجدار كالغربال. الأم تزحف نحو الباب، الأم تنزف قسطلاً مستمراً من الدم، الأب يقترب من ابنه، لا يجرؤ على حمله مفلوع الرأس، البنات يبكين، أغمي على الكبرى. انقطعت الكهرباء، غاب المشهد.

زمن الحرب عاد؟ لا لم يعد! بلى عاد!
أُقَتِّتُ الاقحوانة، أسألها: مرّة تقول لا، لم يعد، مرة تقول عاد.
نفتح الورق لنبصِّر فيه، نسأل البرّاج، فنجان القهوة، كاشفة البخت: عاد زمن الحرب! لم يعد!
شوارعنا مقفرة. أمس ركض فيها الرصاص، جدار بناياتنا بُنِيَتْ من جديد على مساحاتها صور الموتى: المحارب شابّ، عيناه إلى عل، قميصه مفتوح، تلفح اسمه زخّات المطر. الشهيدان طفلان. سلسلةٌ من الأسماء تلعب بها أصبع تتحرّك كذنب الحيّة المقطوع.
قداديس وجنانيز عن نفوس وأجساد وأحلام.
الليلة كانت هادئة، لا شيء على الجبهات. الناس مع الصباح أمام الأفران، والدكاكين والجرائد.
الليلة كانت هادئة قال الراديو.
النهار مصيره في ضمير الغيب.
«هلمّوا إلى بناء الوطن»، قال الزعماء.
ضمّدوا جراحكم، إحملوا صلبانكم، لملموا أشلاءكم، أي استقلال يجب أن يُسْتَحَقّ، ولا ثمن يساوي الاستحقاق إلاّ تقدمة الدم.
لو الدم، اللون الضروري في اللّوحات الحديثة، اللون الأساسي، الذي لا مفرّ منه، الذي لا غنى عنه، الذي دونه لا تباع لوحة ولا يُسأل عن رسّام.
«الموظفون إلى أعمالهم تحت طائلة المسؤولية» قال الراديو.
«أنت في منطقة غير منطقتك، انتبه، لا تتجوّل في الزواريب، إمشِ في وسط الشوارع المطروقة، من الشغل إلى البيت». قالت أمي.
«هل تكتب عن الحرب؟ يا الله كم أتمنّى الكتابة عن الحرب». قال توما.
وما يكتب عن الحرب؟ صورة في جريدة تعبّر عنها أكثر من ألف كتاب. صورة جثّة، صورة قنّاص، بيت يحترق، هاربون يحملون بُقَجهم، أطفال يجرّون شيوخاً، جنازة في شارع بالكاد يمشي بها أهل الميت ليحملوا ميتهم ويركضوا بنعشه. وما يكتب عن الحرب؟
«إخرسْ يا توما».
«الوطن يستعيد عافيته» قال الراديو.
أيام، ولم نسمع سوى رصاص متقطّع. رصاص فقط.
«العافية نسبيّة» قال الراديو.
«النقاهة من العافية، النقاهة ليست من المرض. نسوق ذلك إلى المتشائمين». كتبت الجريدة.
وما يكتب عن الحرب؟ ولماذا عن الحرب؟ ولماذا الكتابة؟
للأكل يا سيدي للأكل.
قال شارل: لا ينفع الأدب. الناس لا يقرأونه.

لا! الكتابة ليست للأكل وليست للقراءة أيضاً.
إنّها للكتابة.

عندي أيام أعرف أن أكتب فيها. كل ما أصوّره على الورق ينجح. هذا الصباح وأنا في الحمّام لم أنقطع عن الكتابة ذهنياً. كتابة أعجبتني: جمل قصيرة مقصوصة قصاً، مصبوبة صبّاً، معبّرة دون نعوت.
استعجلت الحمّام. فتحت الدفتر. أمام الصفحة البيضاء تحت عيني، شعرت بعجز واضح، بديهي، يشبه العجز الجنسي الذي أشعر به أحياناً. ألف مرة قلت يجب أن أحلّل أسبابه، ولا مرة فعلت. كذلك أقول اليوم عن الكتابة. مشتاق إليها أؤلّفها، تركض في داخلي، فجأة لا شيء أمام الصفحة البيضاء. فلنعد إلى الأفكار. أقفلت الدفتر، أولعت الغليون. فكرت، نادراً ما أعرف أن أخلق دوائر من نفثي دخان الغليون. اليوم عرفت. رأيتها تتصاعد وتتراقص، تعلو ثم تهبط وتمسح زجاج مكتبي وتختفي ثم تظهر كالستار، ثم كالمنشار في شعاع الشمس الداخل من الشبّاك. ذهبت الأفكار مع دوائر دخان الغليون.

ستائر الشبّاك نصف مفتوحة. طائرة مرت. ثم أخرى. ثم صَمْت. ذبابة تحوّم في الغرفة، أحياناً تحطّ فلا تعجبها المحطة، فتعود إلى الدوران. اقتربت منّي، حطّت على يدي، منها إلى وجهي إلى عنقي. حاولت أن أتجاهلها لم أقدر. تذكّرت الجاحظ، قتلتها.
انتبهت أني لست جامداً، أنا أتحرّك: يدي ترتفع إلى عيني تفركها، أدور على الكرسي، أعضّ شفتي.
قرّرت أن أبقي حركاتي عفويّة وأراقبها.
فتحت الدرج، فتّشت فيه بعيني، اتّكأت على حافته أنظر إلى محتوياته ولا أراها. عدت إلى الكتابة الذهنيّة. توقّفت، حاولت أن أضع على الورقة ما كتبت ذهنيّاً:
يا عزيزتي. قلت يا عزيزتي وتردّدت. الكلمة لا تعجبني. فاصل بين الفواصل الكثيرة التي توقف انسيابي نحوك. كان أحسن لو كتبت اسمك، فوق، في الصدر. لكنّ اسمك مركّب، طويل، مستعار، لم يخلق للنداء. أمّا اسمك الحقيقي فقد خفت إن ناديتك به ألاّ تعرفيه.
فيا عزيزتي، كما اكتفينا من الدنيا بما أعطتنا، فلنكتف من النداء بأهون الشرور ما دام الخير مستحيلاً.

عندي ميل أحاربه: أن أستلهم من رسالتي الأولى بعض ما ستحمله هذه. على الأقل الطريق. مع أني أذكر أن لا طريقة في الرسالة الأولى بل كالأفق كنت أتنزّه فيه وكم اندمجت مع حريّته. مع ذلك للدروب المطروقة أفضليّة الاختيار. في الحنين الذي تخلفه، والسهولة التي تقدّمها والطمأنينة التي تؤمنها: سهولة المعرفة بما كان والاطمئنان إليه، وقد أكون بذلك محاولاً تقليدك في محبّتك الأكيد، وكرهك المغامرة، راضياً بالنثر مع هيامي بالشعر، مفضّلاً المشي مع اعجابي بالرقص، لأن المعروف أثبت من غير المعروف وكم أنت عدوّة ما تجهلين، وكم تجهلين جمال ما تعادين...
قرأت، وضحكت لما قرأت. أيام الطائرة لا أتمكّن من الحرب بالمقلاع. قال شارل. أنت تكتب والناس يغتنون، أنت تفكّر والناس يعملون، ليس الحق مع شارل لكنّ الاتّصال مخرّب، فما هكذا يكون الاقتراب

والتقرّب والدخول.
أعدت النظر إلى الدرج دون أن أفتّش في ما أرى.
لا يكتب إلاّ عن الحرب. وما يكتب عن الحرب؟ يكتب بالرمز، بالتورية، بالمفتاح، حرب للطبقة الجديدة، طبقة المحاربين والدائرين حول المحاربين والذين يستعملهم من وراء المحاربين. لغة صحافية رائعة قال شارل. رائعة. الحرب الجديدة التي بشّعت الماضي وروّعت الحاضر ولم تغيّر المستقبل.
يكتب بالإحساس اليومي المتشابه في مرثيّاته ومراثيه وكوابيسه ووطء أحذيته. رفع شارل يده وقال: كفى، عدنا إلى الأدب.
وزمن الحرب؟ هل عاد أم لم يعد؟
ميشال ساردو ويغنّي «أيام المستعمرات»
الاسطوانة ممنوعة في فرنسا قال؟
هل تصدّق أن هناك شيئاً «ممنوعا»؟

آلمني مرفقي لفرط اتّكائي على حَدّ الدرج. ابتسمت: حدّ السيف، حدود الدولة، حدود الذات، حدود رزقنا في كفرملات على خريطة المساحة، فقط على خريطة المساحة. ليس في الدرج سوى ملفّ سيلوفان كبير. أخذته. وضعته على الدفتر. منذ ما قبل الحرب لم أفتحه. لن أكتشف شيئاً جديداً فيه، أعرف بالحدس ما يحتوي. قضية إعادة نظر فقط. فيمَ؟ كل شيء. ومن لا يعيد النظر في كل شيء؟ تَرْجِمْ ديكارت حرفيّاً، تَرَ أنه «حَلَقَ للطاولة كي يعيد النظر». طيّب. مراجعة فلنقل.
فتحته كما فتحت الورق أمس لأرى هل زمن الحرب عاد. وكما فتحت الراديو والدرج والأبواب وعلبة التبغ والمحفظة وعيني وفمي.
نثرت أوراق الملف على زجاج المكتب: مسودّات ما كان يمكن أن أكون، مشاريع ما كنت أحب أن أكون، إمكانات الهرب من واقعي الذي أكره. إمكانات كوني ما كنت أتمنّى أن أكون.
فلتعد الحرب لأهرب. يا رب أصلّي. استجب صلاتي.
النملة وتيمورلنك. الحبل يقطع خرزة البئر، أصابع الناس حفرت مرمر عمود التمنّيات في آيا صوفيا، شفاه الناس أكلت أصابع قدم بطرس في الفاتيكان. لو كان عندكم إيمان قدر حبّة الخردل!
لا أحب الخردل. وأكره انتظاره ليصبح شجرة. أعجز عن الانتظار، العجز المتأتي من الجوع، الجوع الماحق الجرادي، الذي يريد أن يشبع في لحظة ولا يعرف أن ينتظر اللحظة.
قالت أمي: ظَهَرَ شربل جبلاً من البخور. عند الله عجائب كثيرة يا ابني والرب يحب خائفيه. خذ حصىً من أعجوبته، ضعه في جيبك يباركك القدّيس. لم أجرؤ أن أقول لا. خفت أن يكون ما تقوله صحيحاً. إركع تأتيك الصلاة. عُمِدُ الكنيسة الأربعة فجّتها القنابل. الخوري يرفض أن يقرع الجرس، يخاف على القبّة أن تتهدّم. سينتظر قبل إصلاحها. من يعرف، قد تعود الحرب. ابتعدوا أيها الأولاد عن الجرس، يقع على رؤوسكم.
سيّجوا القبّة بالأشرطة الشائكة. لكنّ النمل الأحمر لا يخاف، يمسح طولها خطّاً خطّين ثلاثة خطوط راكضاً نحو الجرس.

أعدت الملف، الغليون ثقيل على أسناني. منذ مدّة هو في فمي أعضّه. انطفأ. من زمان انطفأ. بردت جوزته. وضعته حدّي، آلمني

فكّي الأسفل لفرط ما شددت. ونظّارتاي لماذا على أنفي؟ لأكتب قال. نسيتها أيضاً. فجعلتاني أرى الأشكال متموّجة من بعيد. عمري لم أعرف أن أتطلّع إلى بعيد. أمامي مباشرة أو أبعد من البعيد. إلى غير المرئي، الذي يشبه غير المعقول الذي يجاور غير الممكن. لذة تطلّع السقف دون رؤيته والحلم بترهات الانتقالات المتعدّدة، التقمّصات المتلاحقة، التي تفجّر ما بي شظايا صغيرة، صغيرة، لا يمكن إعادة جمعها، لا يمكن الاحتفاظ بها للذكرى كما فعلنا بشظايا قنابل حربنا، وقدرة تجدّد الترهات دون انقطاع. وتجدّد التفجّر هكذا، ذهنيّاً، تماماً كما أكتب، حتى لأشعر أنّي كالمركب المنفوخ الشراع يسابق الريح على بحر من الزيت ولكن إلى أين؟ هنا المهمّ. إلى لا مكان.

قالت وهل ضروري المكان؟ أنتم الرجال لا تعرفون معنى التجوال الحقيقي، معنى التشرّد. التشرّد مكان في ذاته لأنه بُعدٌ دائم. وفي النهاية، قلت: للتشرّد قرار. المكان الوحيد عدم الموت.
قلت: لذلك حيثما كان هو اللامكان. الحلم بالنزهات يا حبيبتي، الهرب في المركب المنفوخ الشراع، الحب، المال، العمل، الكتابة، دجل للتمويه على الموت.
والوقت، الوقت الذي مسروقاً يمر، الوقت الذي لا ننتهي منه، أقتله بما يتوافر لي من سلاح، علاقتي معه علاقة الجريمة الدائمة، ومشكلتي معه مشكلة الندم الذي لا يرتاح، عالقاً أبداً كالضوء الذي تشعله أمي ليل نهار لقلب يسوع.
قلب يسوع، مجروح مني، أنا الذي تنقصه عين الإيمان. والضوء الدائم أمامه لا ينير طريقي إلاّ في الليل إذا استيقظت والجميع نيام، ودرت في البيت كالشبح العاثر، الهائم على وجهه ويديه ورجليه، حيواناً منقرضاً يفتّش عن سلالته.

تعشّينا فواغرا وكافيار. النبيذ طعمه طيّب. طيّباً كان. أضراسي تقرش لوزاً محمّصاً. أسكتني صاحبي بيده وقال: قريب صوت هذا المدفع. شربت كأس النبيذ جرعة واحدة وضحكت.
قال صاحبي: عندما وقعت الشظيّة في حديقتي أمس تسابقت مع إبني في دخول الباب. دون وعي مني حاولت أن آخذ حظّه من النجاة.
شربت كأسي الثانية. يجب أن أقتل طالب ما دمنا في فوضى القنابل. الإزالة سهلة: أضربه بالفرّاعة على رأسه فأهشّمه، وعلى أنفه، وأرى الدم يخرج من فمه على قميصه المنشا الأبيض. طالب لن يطالب به أحد، أنّه حيادي، بريء.
مهمّ قتل طالب لي، نوع من إزالة عوائق مروري. طالب يحزرني، يراني مهما تخبّأت، يعرف أعمالي يدلّ عليها. طالب يسرق حتّى لحظاتي الحميمة، يعرف ساعاتي، لا أقدر أن أفاجئه بشيء.
المدافع تتوالى. فككت زنّاري وشربت كأسي الأخيرة وخرجت.
«المدافع قريبة يا مجنون».
الفرّاعة في خزانة المؤونة، حدّ كيس القمح. حتّى في العتمة أستطيع أن أجدها. طالب يلعب بالورق في الدكان حدّ المصبغة...
لو قتلت طالب يومها لانتهيت من هاجسي.
عندما اقتربت منه ونظرت إليه، رفع وجهه إليّ ببراءة وابتسم. الفرّاعة كانت خلف ظهري.
لم أستطع أن أضرب عينيه المبتسمتين. وعرفت أني لن أقتله بعد اليوم.
قمت. أنزلت الستار. تمشّيت. كتبت باصبعي على الحائط، قعدت على الكرسي الطويل. مددت رجلي، تطلّعت باعجاب إلى حذائي الجديد. أحب الأحذية. أشتري كميّات منها. يجب أن أحلّل السبب. كم عندي أشياء يجب أن أحلّلها. سأفعل ذات يوم.

الوقت. الوقت الذي أقتله أكرهه لأني لا أستعمله.
أكرهه لأنه يستعملني: كومة انتظار له ليمرّ.
الحب، الكتابة، العمل، المال، محاولات تمويه على الموت.
شيء واحد، شيء واحد وددت لو أجده يعمل لذاته، هكذا كالعبادة.

«سنكن يتن» لم يكن مثلي. أنا حفيده، على الأقل جغرافيّاً. كان يجب أن أكونَ أشبهه: بالعقل القابل للتحذلق، بسهولة التكيّف واختراع المخارج فأجد طريقة لاستعمل أنا الوقت. المهمّ الطريقة. الطريقة قال ديكارت. الطريقة تنتج اللذة، اللذة تعلّم الاستعمال، فألعب بالوقت عوضاً من تحوامي حوله كالشحاذ.

لأكتب. قمت. أزحت الكرسي. جلست إلى المكتب. فتحت الستيلو. ؟ أيضاً فتحت ؟ دون أن أعرف بما أبداً، مرّ الستيلو على الورقة. لم يكتب. حبره جفّ. الحق معه لو كان فعلها حرداً.
أخذت المحبرة ؟ ضجرة من كلمة فتحت ؟ حبّرته، ليس حدّي ما أنشّف به ريشته. لن أقول لآتي بكلينكس. الأفكار تتزاحم لأني لا أقدر أن أمسك بالستيلو. كمّي حدّي، وحده حدّي، حدّ عيني. كمّي كحلي، الحبر كحلي، مسحت الستيلو بكمّي. صغيراً كنت أمخط وأمسح به أنفسي.
يجب أن أستطيع أن أكتب.
الكتابة للكتابة. هكذا قلت لشارل.
لم أكن أكذب، كنت أظن أنّي مصطنع.
صادف أن كان في الدنيا عبّاد كتابة.
الحبر في الستيلو. الأفكار انسحبت وتبخّرت.
إركع تأتك الصلاة. قال باسكال. مثلها: حدّق في الورق وحرّك الستيلو تأتك الكتابة.

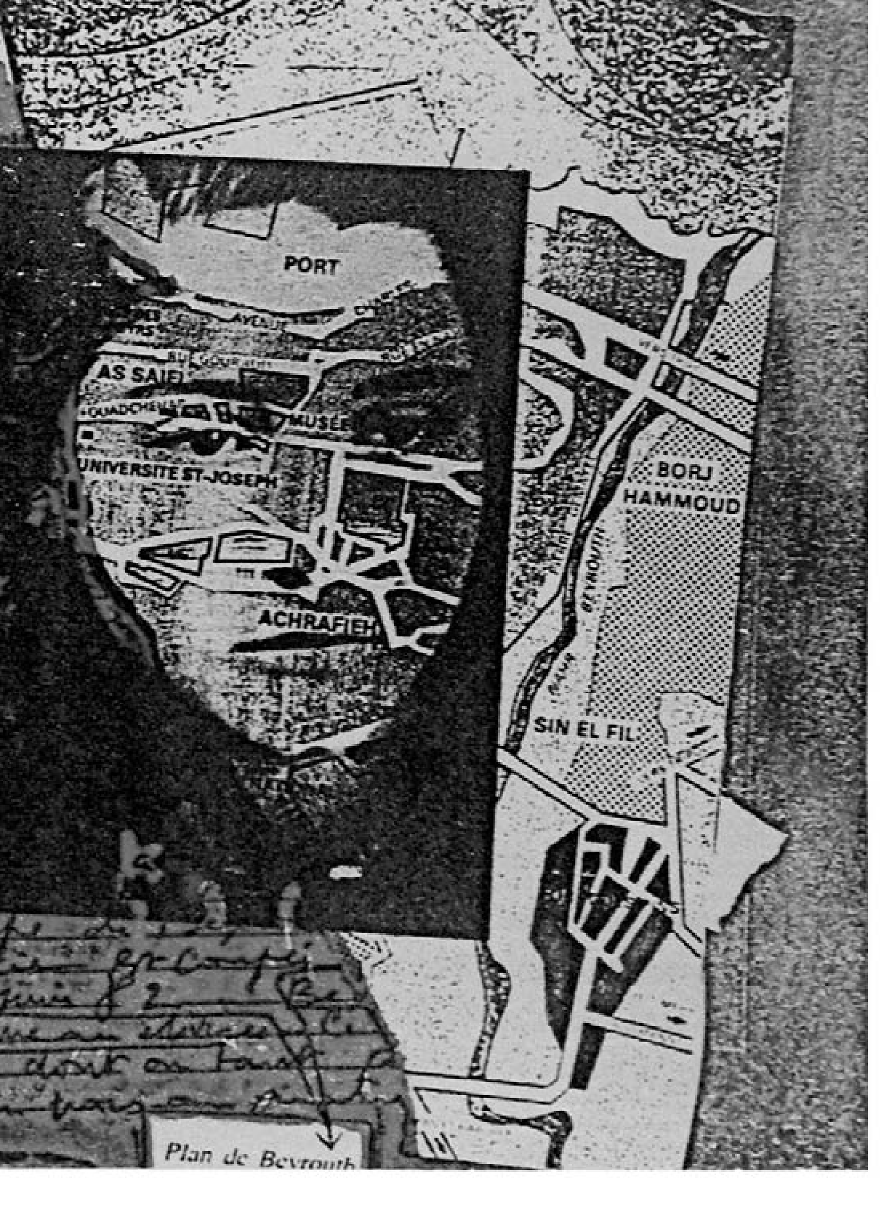


ولِمَ الكتابة دون الشعور بالحاجة إليها؟ فلا هي ولا الصلاة ولا الحب ضرورية دون حاجة. حاجة العبادة التي تجعل من الكلمة أعجوبة كتكاثر الخبز والخمر في عرس قانا.
لكن الوقت، الوقت حولي كالسيل الموحل يعلو شبراً بعد شبر، وأنا كمن في كابوس، جامد لا أستطيع أن أتحرّك. الماء الموحل يغمرني، سيصل إلى خاصرتي، وبعدها إلى عنقي، ثم إلى وجهي.
قال شارل: يا الله الحرب مادة للكتابة كالماء في جوف صنّين.
فتّشت عن كبريتة لم أجد. حاولت في جيوبي. وجدت واحدة في جيب سترتي. أولعت الغليون. وضعتها على المكتب، تطلّعت إليها، قرأت بالانكليزية: «البدوي» لم أر هذه الماركة إلاّ أيام الحرب. الطقم الذي ألبسه لم ألبسه منذ الحرب. منذ الحرب العلبة في جيبه.
تطلّعت من جديد إلى العلبة: البدوي يلبس عباءة حمراء وكوفيّة حمراء، في يده بندقيّة يهوّل بها كأنها سيف، يركب حصاناً بنّياً مزركش السرج.
أحسست بقلبي يسرع خفقه. الحرب التي نسيتها لم تخرج مني. الحرب التي كنت فيها سيّد الوقت: لم أسرقه مرّة، لم أقتله مرّة، بل بيدي كنت أجرّه في نزهاتي كالطفل، كالأعمى، الأخرس، ولا مرة كان.
الحرب التي فيها بعت كل شيء وتبعت الحياة، كرسل المسيح الأُوَل، ولأنهم باعوا كل شيء وتبعوه خلصوا. الحرب التي كل يوم كنت أنعم فيها بمتعة الحياة، بنعمة الطريق، قرأتها على علبة الكبريت جواداً بريّاً لا سيّد له.

أصابع ابنتي الصغيرة متكمّشة بزندي. نصعد الطريق اللولبية نسهر. صوت عصاي التي شغلها لي البونا برنردوس، وحده يرافق حكايات ابنتي.
– لا تحكي يا بنت بالطلعة تتعبين.
– اسمع، اسمع، الملاك انتقى داود بين أخوته ليجعله ملكاً، أتعرف كيف ولد يوحنا المعمدان؟
– لا.
– أتعرف كيف مات؟
– نعم.
– إسمع، أعطني عصاك، أنت تحرتق بها. أتعرف ما أخبرت رفيقتي؟
– اسكتي، تتعبين، الطريق في أولّها.
– كذبت عليها، قلت أن عندنا قصراً في بيروت فيه ثلاث برك للسباحة وبركة للسمك يا الله كم فيها من سمك أحمر وأسود ورمادي وأخضر، كل الألوان، وفيه ملعب تنس، وفيه بلكون كبير للعب الايكس، وعندنا عشر سيّارات. خذ العصا.
وتعلّقت بزندي تتعنزق به، وتشدّ نحوي جسمها العصفوري.
– خيّ، لا نسمع مدافع الليلة، أنا مبسوطة، ولو كنّا نسمع مدافع، إنها بعيدة، حرام القريبون منها.
العتمة كاملة على الطريق. السماء كحلية غامقة. سألتني عن الدب الكبير. تطلّعت فوق. الصغير أعرف أن أجده، الكبير أين هو؟ عمري لم أتعرّف إلى طريقه. دللتها بالعصا إلى السماء وقلت هذا، مدّت أصبعها: «هذا؟» «نعم» «ياي».
القمر صغير، يغيب فوق البحر مع شعاع كذيل الطاووس المفلوش.
ذيل الطاووس مصفرّ. وقفنا فوق الشوار: منبت الريح. سكتت ابنتي. كل من يقف فوق الشوار يسكت. طوال الحرب لم أحمل ساعة. سافرنا معاً في صندوق الدنيا.

دقّت ساعة القرية واحدة بعد منتصف الليل، المنقل خبت جمراته. اطفأت الضوء. بدت الجمرات كأضواء مدينة بعيدة تتغامز. حككشت الرماد. نوّرت المدينة. لن أنام قبل موت آخر جمرة.
الهواء هدأ. كل شيء هادئ. المطر استكان. في الشتاء لا أصوات الديكة تسمع ولا أصوات الكلاب.
سمعت الهدوء أوّل الأمر، صغيراً ما لبث أن كبر في صدري فغمره. قمت إلى الواجهة. الخادمة تنام وسط البهو. تطلّعت إلى شعرها الأشقر الطويل، إلى شفتيها السميكتين، إلى حاجبيها المرسومين كما يَرسُم القلم. عنّ ببالي أن أوقظها وأقول لها تنصّتي، إسمعي الصمت.
ألقيت برأسي على زجاج الواجهة. دخل البرد من جبيني إلى جسدي كلّه. فتّشت في العتمة عن بيتها.
في أسفل القرية سنى أضواء الدروب ينعكس على البيوت، فتطفو كمراكب مربوطة في بحر من الظلمة، واحات من صمت، من أسرار، من مجهول معمور بألف حلم.
دخل بيتُها مع البرد من جبيني إلى جسدي كلّه.
الأشجار كثيفة، حياديَّة، جليلة، حرّاس لا يتحرّكون، أقرب إلى الظلال منها إلى تجسيد أي حياة.
بيتها في جسدي أحمله كهودج من حرير.
تركت الواجهة. أين هي الحرب الآن؟ على جميع المحاور؟ هززت كتفي: الحرب لم تعلق في كفرملات. لم تعلق بعد.
ارتميت على الصوفا. حككشت المنقل. حشوت الغليون، أولعته: غداً إذا انقطع تبغ الغليون كما تنقطع الكهرباء، ما أفعل؟ أدخّن النارجيلة. الانسان فارس التبديل.
الحرب عالقة. لماذا عالقة؟ لأكون سيّد الوقت. بوركت الحرب.
شعرت بالبرد، برد ساعة الذئب، ساعة انحدار الليل نحو الشفافية. الشفافية موت الليل. غريب برد الموت. كل ميت بارد. أحلى الحياة حرارتها.
حككشت المنقل، دفّأت يدي بالغليون.
الحرب عالقة؟ لماذا عالقة؟
بعضهم يقول أنه يعرف. أنا أقول لا أعرف. جلّ ما أعرفه عن هذه الحرب وعن أيّة حرب أنّها لا تعني لي سوف رغبة في التملّك ومزايدة في مزايدة الرغبة، فتصبح الخسارة معها والربح دون معنى. كلام يشبه الكلام عن ضوء القمر يتحدّث فيه لسان في الجحيم؟ قد يكون!

الغليون لم يزل يُدَفئ يده.
الجمر في المنقل مات. مع ذلك شعر أنه لا يستطيع أن ينام. أدخل رجليه تحت اللحاف وترك نظّارتيه على عينيه وتطلّع إلى السقف.
سمع القذائف تتوالى بعيدة. أحسّ أن شيئاً فيه لم يتحرّك، وأن زائراً



هادئ الخطوات يتصدّر في زجاجتي نظّارتيه يجالسه، قريباً، محباً، دافئ الأنفاس. وجهها كان عابقاً بألف سؤال، ولسانه مربوط عن أيّة كلمة.
المسافة. لأوّل مرّة يشعر بهول المسافة. يشعر بامكان التجسّد. وبين وهم وحقيقة، بين ضياع ووعي خيّل إليه أنّهما يتحادثان، ويتحابّان.

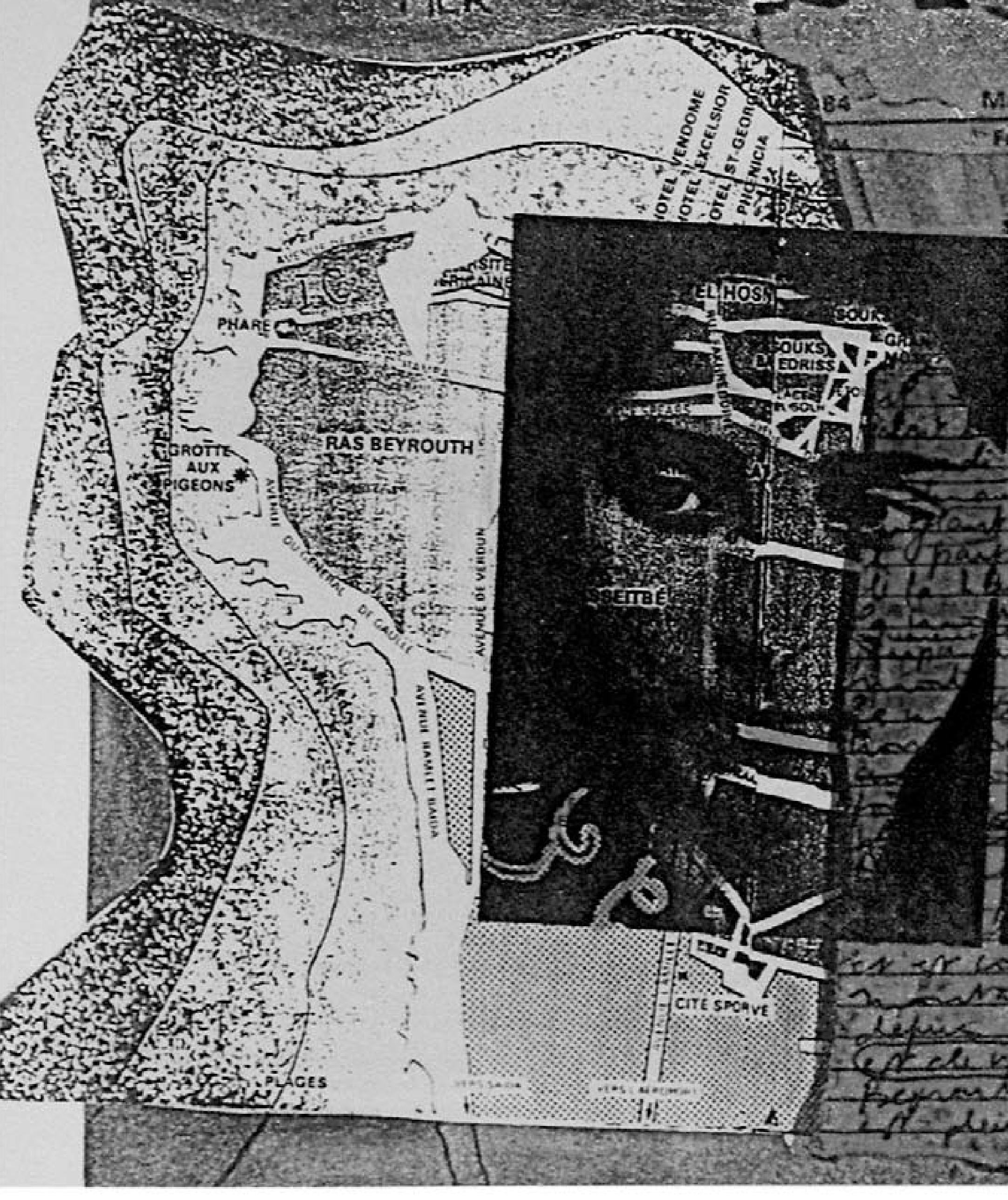
أصلّي اليوم بهذيان، بلهفة، منذ زمن لم أصلّ. أصلّي لأني مرتاح، لأني في حاجة إلى أن أكون أكثر وأبعد وأعمق. لا لأطلب شيئاً أصلي، الطلب يفسد الصلاة. كما عندما كنت طفلاً أصلي وأعي أني أصلّي. وألتذّ وأفرح بالصلاة. أصلّي مطبق الفم غائب العينين، الصلاة بعض من لقاء. أصلي دون ترتيب أفكار، مندفعاً، عفوياً، أهوج، كما الجائع إلى الرغيف الساخن، والمشتاق إلى الجسد المنتظر.
قرأت قصيدة «سافو»، ليس فيها أي نعت، وضعت دون استعمال الصفة. سافو كانت كما أنا اليوم، حقيقة. الكلمة الكلمة لا حاجة بها إلى شرح، إلى تجميل، إنها معنى الأشياء، كنه التجسد عندما تكون حقيقة.
الشمس لم تطلع بعد. السماء رماديّة. لن أسمع راديو اليوم. دعوا الموتى يدفنوا موتاهم قلت.
استغربت كيف أمضيت زمناً أكثره في عجز عن الاتصال. لأني كنت أعرف أن الاتصال حاجة، كان يجب أن تستطيع هذه الحاجة فعل الأعجوبة. إنها عملياً أكبر من حبّة الخردل.
لم أكن مسؤولاً. كنت أشعر أن فيها شيئاً تخرّب. أتطلّع إليها فلا أدرك ما تخرّب. أراها تتحرّك ظاهرياً بصحّة وعافية، متورّدة الخدّين، طبيعية التصرّف. لكنّي لا أبصر عينيها؟ تتطلّعان في وجههما وهذا طبيعي، وهو ما أتمنّاه، ووجههما في المكان المقابل لي ولو كانت انطلاقتهما منّي.؟
لو لم يكن فيها شيء تخرّب لكان الاتصال، وحصلت الأعجوبة. الاتصال مع وب. ال مع وال ب، فاصل، مسافة. لمحو الفاصل وقطع المسافة تجيب الأعجوبة. كل مرة تجب، وهي دائماً ممكنة إذا صدقت الحاجة ولم تتخرّب.

قال شارل: الناس لا يقرأون عن الحرب إلاّ أرقاماً، إلاّ إحصاءات وتواريخ وأسماء، أي كل ما لا يهم الحرب. ما يهم الحرب لا يهتمّون له. الحرب راحت وراح معها مَن راح، دون نتيجة.
شارل متفائل. أمس أكلت السجّادة الصاروخ. أمس فتحنا الورق وسألنا كاشف البخت وذهبنا عند البصّارة وفتّتنا الأقحوانة.
مرة قالت الأقحوانة لم تعد، ومرة قالت عادت.
الأقحوانة أيضاً لم تعرف.
قال شارل:
الحرب راحت دون نتيجة. راحت كالخطيئة. لا أحد يحب أن يتذكّرها ولا أن يتذكّر دوره فيها. غير أن الخطيئة إذا لم تجد من يغفرها تبقى كالدملة، مهما وسعت رقعة المها لا تداوى إلاّ حيث أصابت، ولا تشفى إلاّ بعد الفداء.
قلت:
والذين علّمتهم الحرب أن يحبّوا الحياة دون خوف من الخطيئة؟ ألا تعتقد أن للحب وجهها الآخر؟ ألم يكن الشيطان ملاكاً؟ وأبطال الحرب وقدّيسوها ألم يكونوا بشراً؟ وعبّاد الحياة ألم يكونوا يدجّلون على الموت ويموّهون على تذكاره؟
البَرَد ينزل صغيراً، تذريه ريح كالعاصفة، تدفع به على زجاج الواجهة فينقشع فوق حواجز الخشب، ثم يتزحلق غصباً عنه، بحزن. بعض الشعور بالحماية لا يكفيني، لا يطمئنني، وأن أدخل جسمي بفرح تحت اللحاف في انتظار يقظة الغد لون من ألوان المستحيل. المهم ليس أن أحتمي من الهواء ومن البرد، ولو حماية مشكوكاً فيها. المهم أن أحتمي من الخوف.
الخوف من العدو؟ الانسان؟ المغفل، الذي كنت ألتقيه سلسلة غير منقطعة في شوارع مدينتي وغالباً كان وجوده يؤنسني ويسلّيني. شعوري اليوم، حين أمشي في بيروت، كشعور الطفل الذي يمشي للمرة الأولى. الذي يفتّش عن توازنه. عمري لم أتبيّن الوجوه كما تبيّنتها اليوم، وعمرها لم تتفحّصني كما تفحّصتني اليوم، وعمرنا أنا وهي لم نعجز عن قراءة ملامح بعضنا البعض كما عجزنا اليوم. الرعب فقط كان نقطة لقائنا وتباعدنا.

قنابل المدفع تنفجر في جوارنا. بومة تعنق في الصنوبرة حَدْ الشبّاك. قلبت زوجتي الحذاء لتطرد البومة.
مسحت أمي وجهها بيدها وقالت: «عرفت أن شرّاً سيقع اليوم. مايا فتحت المظلّة في البيت».
الكهرباء مقطوعة. قناديل الكاز مضاءة. رائحة الكاز أحبّها: رائحة الطفولة، رائحة الأمان القديم، زمان السلام الأول الأول والوحيد، زمان اختراع الله، والأبد والمطلق.
عيناها معي، تضيئان الليل الأسود. الشعاع الوحيد من الضوء الباقي من خارج الجحيم.
القنابل تنفجر. البومة تعنق مع أن الحذاء مقلوب. الخربة فوق بيتنا مفتوحة فجواتها كفم تنّين.
حسناً فعلت ولم أهدمها. سياجاً ضد القنابل صارت، متراساً.
الناس يموتون كالخراب، متروكين. يوماً يقال: ماتوا فداء لغيرهم. أو خرزة عين.

طفلتي تخاف الليل. يشبه الراهبة قال. وتخاف صوت الرصاص ورجّة المدفع وتحتمي بين ذراعي. رأسها مخبّأ، وعيناها مغمضتان.
الكلب أيضاً احتمى من الأصوات تحت المقعد. صوفه الطويل يرتجف، عينه الحمراء مفتوحة تسأل.
حملت ابنتي إلى الزاوية وتقوقعنا.





أخي وضع القدر النحاسيَّة على رأسه وركض إلى المطبخ ليأتي بلفَّة الخبز فنأكل.
الرصاص على الطريق كصوت البَرَد على الزجاج.
تجمّعنا في الزاوية كومة من الخوف والذلّ. نسأل الأقحوانة هل عادت الحرب؟

القرية تُحبُّ كما تُحبُّ الفتاة. أمّا المدينة فكالمرأة. أحب بيروت، أعشقها مشقوعة مثل كومة حطب أخشى عليها أن تحترق. ومنها أهرب إلى القرية. القرية عيناها زرقاوان: قطعة من السماء.
والدي في الجنينة، قنبازه ومعطفه وقبّعة الصوف، يقلّم أشجار الدرّاق ليطعمنا في الصيف. والدي لم يزل يحب أن يطعمنا من يده.
الصباح بارد. غيوم مختلفة الألوان الرماديَّة تركض. ابنتي تقرأ «عنزة مسيو سيغان» وهي تأكل أظفارها. أنا أشرب قهوتي حدّ منقل لم ينضج جمره.
الرصاص ينهمر من حيثما كان على حيثما كان.
قامت ابنتي إلى الواجهة. ركضت وجررتها إلى الغرفة الشمالية.
الرصاص ينهمر على الضيعة، ينهمر على بيتنا، يدخله. دخله من الواجهة، كسر زجاجها، دخله من الشبابيك خرق خشبها، استقرّ على البلاط في الجدار، ملوياً. احتمينا دون أن نفهمه.
الرصاص على الجنينة، أراه ينزل وأنا في مخبأي. أحمَر خطّاطاً يدلّ إلى الطريق، ثم أبيض يلمع تحت الشمس. أبي في الجنينة لا أعرف خلف ما يختبئ. الرصاص كالشتاء ينزل. تكوّمنا في الزاوية تحت قلب يسوع. قلب يسوع منذ خمسين سنة كان يعرف ما سيحدث في ربيع الغضب هذا فانتقى منذ علّق في البيت ملجأ لا يصله الرصاص.
أبي في الجنينة، الرصاص ينزل على الجنينة، لا أعرف خلف ما يختبئ. الأولاد حوالي، يرتجفون، زوجتي تصلّي. لا أحد منّا يفهم مجّانيَّة هذا الرصاص. إبني في القبو يستمع إلى بيتهوفن، إبني يزدري الرصاص. صلّيت ألاّ يخرج، مستحيل أن أتوصّل إلى الكلام معه، بيننا وبين السقف.
مشيت لصق الجدار حتى الواجهة، تطلّعت إلى الجنينة: أبي مختبئ خلف شجرة ازدرخت. الرصاص ينزل في الجنينة يصيب القصب اليابس وعمود خيمة الدالية، ينزل في البركة فنسمع تكسير القصب ورنّة عمود الخيمة، ووقع الزخم في الماء.
الرصاص يصيب جرس الكنيسة فوقنا فيئنّ الجرس. المتراس في الكنيسة، في القبة، الكنيسة تقوّس ويقوّص عليها.
الشمس تطلّ وتختفي. هدأ الرصاص. هربنا بالصف إلى القبو، على أكتافنا أغطية الصوف وتحت إبطنا لفّات الخبز، وفي أيدينا المناقل فنأكل وندفأ، وقد لا نموت.
صاحت أمي: «خذوا معكم قناديل، قد يقطعون الكهرباء في الليل، قطع الله أعمارهم».
حملنا القناديل ونزلنا. أبي صعد من الجنينة، راح يحلق، قلت: «الرصاص من صوب الحمّام لا تحلق اليوم». فهزّ رأسه ويده. أمي لم تنزل معنا إلى القبو، قعدت تحت قلب يسوع. «سيسرقون البيت إذا نزلت». «وبم تمنعينهم؟» «أيام حرب الاربعتعش كنت أنام وحدي في العرزال، في السفرجلة لأحرس القمح والبطاطا، ولا مرّة تجرّأ أحد أن يقترب من الرزقات». أيام الأربعتعش الناس ماتوا من الجوع، اليوم يموتون من التخمة ومن الرصاص. تغيّرت الأيام، ألا تريدين أن تفهمي؟ «لن أنزل إلى القبو، لن أترك البيت، خذوا أولادكم وأسرعوا قبل أن يعود الرصاص».
القبو بارد. على المقاعد المكسّرة تفرقنا، ملفوفين بحرامات الصوف. أكل الأولاد خبزهم، ونسوا الرصاص، فراحوا يلعبون، يصوّرون، يكتبون، يفتحون مدرسة، يفتحون سجناً.
نحن كنا نطلّ من وراء جدار الشبابيك السميكة نتفرّج على الضيعة: قرميدها الصامت، شوارعها المقفرة إلاّ من بعض البنادق في بعض الزوايا، تردّ. ولا نستطيع نحن أن نردّ زهر اللوز والمشمش عن عيوننا. الزهر الذي يفرطه الرصاص، الزهر الذي بقينا نراه في الليل المقمر ذاك، الليل الذي غابت عنه جميع الأضواء والأصوات إلاّ أصوات البَرَد تقلّد صوت الرصاص على الزجاج.

يوم قصفوا ضيعتي بالمدافع والرصاص وقعت قنبلة على سلّم البيت، انفجرت حمراء في عيوننا من خلال خشب الشبابيك المقفلة، وكسرت درجات من سلّمنا، وقطعت أوراق داليتنا وغصون صنوبرتنا.
لم نصلح الدرجات، والدالية لم تفرخ من حيث قطعت، والصنوبرة لم نعرف من أين انكسرت غصونها.
غير أن الرصاصة التي دخلت غرفة نومنا من الخشب إلى الزجاج إلى الستارة فأحرقتها، نبشت في الجدار جورة تدخل فيها أصابع اليد.
إبنتي سدّت الجورة بصورة للعذراء من قربانتها الأولى.
قال شارل: إسمع منّي: أكتب أرقاماً واحصاءات. ما لك وللأقحوانة.

السرداب

الوقت باكر جداً، الشارع خال من المترفين، المقهى كراسيه على طاولاته، ومن خلال زجاجه تتراءى امرأة معصوبة الشعر، مغمسة في سراويلها الكاكي، تمسح الأرض.
المكتبة فتحت أبوابها. أنا في المكتبة الآن. قبالة المقهى، على كرسي من الخيزران، رِجْلاً فوق رِجْل، وفوق الاثنتين الَدفتر الجَديد الذي اشتريته لأكتب.
ثمن الأوراق عال، عال جداً. لم أعتقد أن الأوراق غلت إلى هذا الحد. كل شيء يغلو أيام الحرب. إلاّ الحياة، تقول أمي.
الورقات متلاحقة، واحدة خلف أخرى، بيضاء، بيضاء، أحاول أن أسوِّدها كلّها، رسالة، رسائل.
قالت أمي قبل أن أخرج من البيت: سأضيء شمعة للعذراء وأصلي لها لتعيدك إلى البيت. الحرب لم تزل في الأفكار.
أحياناً لا نسأل عن الحرب، أحياناً هناك غير الشهادة أقوى من الحرب.
في انتظار أن تنزل الكراسي عن طاولات المقهى أكتب في المكتبة.
بشرة يدي في الضوء كجلد السمكة.

ثمن الورقات زهيد إذا استطعت أن أكتب عليها.
أي ثمن زهيد إذا أعطى المتعة التي من أجلها دُفع، ولا يُدفع ثمن إلاّ في سبيل متعة، ولا يغلو ثمن إلاّ إذا لم تأت المتعة.
أربعة وأربعة تساوي ثمانية. الثمن؟ المتعة، معادلة، أهم ما فيها انها تخرب عند أية محاولة لتحسينها أو فرضها أو إصلاحها أو عقلنتها.
أحياناً هناك غير الشهادة أقوى من الحرب.

ثمن الورقات عال، عال جداً ولن تعادله كتابتي. متعتي الحقيقية هي في قرعي بابك والنزول بينكما.
النزول بينكما هو متعتي الوحيدة، لأنه سيكون فاصلاً، لأنه سيساوي جميع الفواصل التي تضعينها بيني وبينك: الطقس الجميل، سيارة المرسيدس، ذهاب جيرانك إلى السهرة، دخان المدفأة.
لا عمر للثوب، الثوب نضج، موقف نضج، أي: تخلّ عن زوائد.
أيّ ثوب نضج: ثوب الجندي، ثوب العروس، ثوب الراهب، ثوب المقاتل، ثوب السلطة. المُلكية زوائد، التعلّق زوائد، الفراق زوائد، والثوب يحمي منها. لكن الحنان، الحنان، هل الحنان زوائد؟
قالت أمي: اسمع مني وابق في البيت، الروح أهم من الحنان.

لفَّ ثوبه في ورقة مزركشة كأوراق الهدايا، وبوجهه المدوّر وعينيه المتواضعتين ورأسه المنحني صوب اليمين، أطل على الشارع الواسع، كانوا حدّثوه عن الشارع الواسع. الحديث ليس كالرؤية.
كالنهر الشارع الواسع، ولم يتخيّله يوماً إلاّ طريقاً كتلك التي يمشي عليها في ساعات صلاته وساعات مناجاته وساعات دعائه.
الشارع الواسع ليس مكاناً، بل أمكنة تزوغ فيها العين وتدوخ الأذن ويتخدّر الشم، الشارع الواسع درب صراخ.
مخيف الشارع الواسع. الوقوف فيه مخيف، والمشي فيه مخيف، والسؤال فيه مخيف.
كالأيدي المتشابكة، شواهق بنيانه، ضجيج حركته، الأكتاف المتدافعة فيه.

شد على الثوب بأصابعه العارقة، وتطلّع إلى فوق.
أية رؤية من تحت تسحق الرائي.

القنص في النهر.
القنص عليه كلما أخذته الشمس في شعاعها.
القنص في النهر، نهر الحنان المتدفق من عينيه وشفتيه وحاجته.
أسرَعَ، أسرَعَ حتى الركض.
المهم الخروج، سِفْر الخروج، ولا تهم العودة، فالعودة نزهة.
المهم الخروج فالخروج سَفَر إلى ما لا نهاية.
القنص عليه، على الورقة المزركشة.
الثوب يُرى ولو ملفوفاً كهديَّة.
في طريقه، تكبّرت عيناه.
الباب ينتظره، المرآة تنتظره، الوجه ينتظره. الباب، المرآة، الوجه، نهر الحنان.
أيها السرداب افتح أسرارك للخارج من أرض الوحدة، الوحدة جحيم.
أيها السرداب، ولو معتماً، أشباحك سلوى تطرد الذل من الأرض العاقر. فالوجود أحسن من الفراغ، والشبح أحسن من العدم، ملعقة عسل في القفير المهجور.
أُنزلت الكراسي عن الطاولات، فُتح المقهى.

الطائرات تحوّم. أراها من مكاني، قاعداً أشرب الشاي في مقهى زجاجي، زجاجه عريض، طويل كستارة السينما.
الطائرات تحوّم، بعيدة، لكي أسمع هديرها.
الطائرات تضرب، أسمع انفجار قنابلها.
أرى دخاناً أسود، تارة كالسحابة، تارة كالفطر، الطائرات تعلو كالبواشق.
الطائرات تنزل كطير البحر.
لا أسمع صراخاً، أتخيّله فقط. ما أفقر الخيال!
طير البحر أين يحطّ؟ أين يفترس الأسماك؟

الشاب والفتاة يأكلان فطائر حلوى.
قال: أرأيتِ الطائرات؟
هزّت الفتاة كتفيها وقالت: هذه الحرب ليست حربنا.
كل حرب حربنا، قلت.
تهدّدني الشاب بعينيه.

المرأتان تتحدّثان عن ثياب الشعنينة لأولادهما.
فلأشبع من المقهى! أيام حربنا ستأتي، ستأتي ذات يوم.

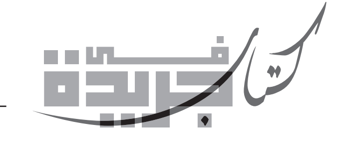
غابت الطائرات، غاب هديرها.
الدخان الأسود صار رمادياً.
الناس يدخلون المقهى أفواجاً.

قد لا أذهب وأنزل بينكما. أو، قد أذهب متأخراً ويكون لبس ثوبه. عند العودة لا يهم الثوب. الثوب حاجز للخروج فقط. سأذهب، متأخراً. تحولتْ متعتي عنك وعنه وعنكما وعنّا إلى منظر الدخان وقد ابيضّ، إلى الحرب وقد هربت بالطائرات.
الدخان الأبيض علامة يسر.
النقاهة يسر، زوال الرعب يسر.
أنا بلا ثوب، أنا ليس في يدي ورقة مزركشة.
الحنان طلب جبان.
أنا أريد الحب.

أنا حدّي عرش فارغ لملكة.
أيتها الملكة من أنتِ؟
أين أنتِ؟
عندي عرش فارغ يفتّش عن ملكة، فالتي تشعر أنها ولدت للجلوس عليه فلتأتِ.
أيتها الملكة، حدّي عرش فارغ!
لا أفتش عن سلالات ولا عن مقاييس ولا عن أسماء، أفتش عن ملكة.
مَلِك من يُحِب، ومن يُحِبّ فقط هو مَلِك.

المرأة قاعدة على الرصيف،
رأسها معصوب بمنديل أسود، فستانها فضفاض، أسود، تبكي.
حواليها بقج زهر، خضراء، بيج، مقلّمة، وأطفال.
وحلٌ على أيديهم، غبار على شعرهم.
دخان أسود على وجوههم.
المرأة تبكي.
نَسِيتْ طفلها وهي هاربة من الطائرات.
نسيته بعيداً، بعيداً جداً، في القرية البعيدة، البعيدة جداً.
لن تعود المرأة إلى طفلها.
الطرق سدّت.
بالبزّات والحجارة والبنادق.
ولا البزّات، ولا الحجارة، ولا البنادق تفهم ما بين الأم والطفل.
البزّات، الحجارة، البنادق، ثوب يحمي من الزوائد. الحب التعلّق والفراق زوائد.

الثوب الملفوف في الورقة المزركشة على الكرسي.
الورقة المزركشة نخرها رصاص القنص.
الوجه المدوّر في المرآة، في أولها.
في آخر المرآة باب السرداب.
على جدار السرداب الأيسر نور يتهادى.
في آخر السرداب حكاية.
الحكاية: حاجة الاصغاء.
أهمّ ما في الحكاية ليس نهايتها.
أهمّ ما في الحكاية أسلوبها.
أبي كان يحكي لي حكايات لأنام، فكنت أستيقظ.
الحكاية قبل النوم اطمئنان إلى الوجود.
كالساعة القويَّة الدقات في جراب أمي، تثبت لها أنها لم تزل في بئر الوقت.
وجه السرداب بدء الحكاية.
كملعقة العسل التي آكلها قبل النوم، ملعقة عاطفة، ملعقة حلاوة، ملعقة حنان في القفير المهجور.
ملعقة العسل تغيّر لون الجبّة، تونسن الثوب.
اقعد عاقلاً وأعطيك سكّرة.
السكّرة كانت أمي تعطيني إياها إذا لبست ثوب الحماية من الزوائد: اللعب زوائد، الركض في الغرفة زوائد، توسيخ الثياب زوائد.
الآن يعطيها ذاته ليخفف عناء الثوب
حبوب حنان.
الحنان؟ الحوار، الذي لا يغيّر العالم بل يجعله مقبولاً، فكل ما يحاول تغيير العالم فاسد، منطلقه غلط، معطياته ناقصة. العالم لا يُغيّر ولا يتغيّر ولا حاجة إلى استبداله.
إنه جميل، كامل ضمن منطقه، لكن منطقه بارد، بارد.
صرخ وهو يهرول إلى باب السرداب، إلى النور المتراقص على الجدار الأيسر:
يلزم العالم القليل من الحنان حتى يصبح مقبولاً.





حكاية تنتهي بلقاء
في آخر السرداب.

ناداها.
السُّكر والحشيشة، قاسيان كالأمل، فاسدان كالحلم، ما بعدهما يأس وقفر باهت.
فقط، فقط بعض الحنان يجعل العالم المنطقي، الجميل، التمثال، مقبولاً.
المهم أن ننام وطعم الحلوى في حلقنا.
أليس أهم شيء أن نستطيع أن ننام؟

لكن الحرب، الحرب! قالت له من داخل.
الرجل ساهمْ، كوفيّته فالتة على كتفيه، في يده قطعة حبل وعصا، واقف على الأرض الرملية، يقيس بعينيه مسافة وهمية إلى الأفق.
قطيع غنمه راح، بيته احترق، الكمر الأبيض كان معلّقاً خلف الباب.
بقي قطيع أولاده في الخيمة المؤقتة.
كلام للفرجة ولن يُعبّر عن الحرب.
لكن الحرب، الحرب صرخت له من داخل.
الحرب هناك نسمعها.
لو تطاولنا لرأيناها.
المهم الحياة، قالت أمي..
ليس الحنان، لا، ليس الحنان.
مدن الحرب على الصليب.
مدن الخراب ليس فيها من يبكي خرابها.
الحرب هنا.
حرب اختلاف صلواتنا.

إنطفأ الضوء في السرداب.
لم يبق إلاّ ما لا يرى.
صرخ قائلاً: سِفْر الخروج!
قالت: العودة، العودة.
الحرب هنا.
في السرداب صوتان ضائعان.
والحرب بقيت.
حرب الذئب والغنم. الذئب الذي لا يشبع، ولا تفنى الغنم.
حرب؟ موت؟ الحصان؟ الأبيض؟ مأكولاً.
من زمان، من زمان مات مأكولاً.
هي عظامه التي تتكسّر الآن.
الحصان الأبيض، الطويل الذنب، المنفوخ المنخور، المتعجرف الغرّة.

أطْعَمَ الرجلُ الكلبَ عشيقتَه.
عشيقته ماتت.
لم يقتلها هو. لم تقتلها رصاصة. لم تقتلها قنبلة.
ماتت عفواً، كما يُفترض أن يموت الناس.
كان عندها كلب تطعمه الحلوى، تحكي له الحكايات، تقشّر له قلوب اللوز.
جَوَّعَ الرجلُ الكلبَ.
لف الرجل الجثّة عدا الفخذين والثديين.
سجن الرجل الكلب مع الجثة.
أكل الكلب فخذي العشيقة وثدييها.
عندما انتنت كسروا الباب.
حاولوا أن يخرجوا ما تبقى من الجثة إلى القبر.
مفترساً هاجمهم الكلب
هاجمهم ليقتلوه،
أكل الكلب ما لم يستطع الرجل أكله.
أخذ ما لم يستطع الرجل أخذه
أخذه معه، فيه، سفّره في كيانه.
الرجل أطعم الكلب ما عجز هو عن تملّكه إلى الأبد
أن تكون معه لا يعني أن تكون له
أن تكون له يعني أن تكون منه وفيه.
اقتناء الآخر!
أيّ اقتناء وأيّ آخر!
هنا المسألة.

على عتبة السرداب صرخ الرجل العاري مصلّياً:
طير البحر أين يحط أيتها الوحدة؟
أين يحط؟
والذل أيتها الوحدة؟
ذل الأمل بالحنان الذي يستدعيه الحلم، الحلم الذي يستدعيه اليأس؟
كي لا نموت نأمل بالحنان
نأمل محمولين على ترهات كأجنحة الذباب
نسعد للربيع المتفجّر
لألوان الأخضر المتدرّج
نفرح للفيء يوم الحر
وللدفء يوم البرد.
نفرح للملجأ الصغير الصغير المعطى للثعلب أيضاً وللكلب وللصرصور.
ذل الأمل بالملجأ أيتها الوحدة.
الملجأ الذي لا نصل إليه إلاّ والعتمة في عيوننا
وإذا فتحناها هرب
سراب السّراب.

لم تسمعه. صلاته همهمة على حجر. لم تسمعه. الحرب، الحرب هنا، قالت.

ثمن الوريقات زهيد، أكتب عنك وعنه وعن الحرب وعنّي.
من زمان اكتب عنّا، ومن زمان نزلت الحرب من الأفكار إلى الشارع ووصلت إلينا، فتهدّم المقهى وتكسّر زجاجه الطويل العريض.
من زمان تركته ذاهباً إليك يلف ثوبه هدية مزركشة ويقعد صارخاً على عتبة السرداب يبكي عودة دون حكاية.
بابك لم يزل حيث كان. لكن أنت؟ أنت؟ أعرف أنك لست في بيوتك وإلاّ لما كنت أنا هنا.

أنا ملك وحدّي عرش فارغ لملكة، عرش ينتظر. أين أنت؟ المقهى تخرّب، تحطّم زجاجه ورمّدت فناجين القهوة على رفوفه، وأنا، هربت مع من هربوا.
هربت إلى المقعد الحجري حَدْ البركة المدوّرة، المقعد الحجري الأبدي، البركة المدوّرة الأبدية، أمكنتي الأخيرة، حيث عرفت أن ليس هناك ملجأ، بل إيمان بملجأ وإني فقدت إيماني.
المقعد أفتش عنه لأنه يفرض عليّ أن أدير عيني نحو الشجرات فوقي: السنديانة، الصنوبرة، التينة، أطراف أغصانها تتلامس وتتباعد كعناق العصافير، بينها كلّها سماء مقطّعة قطعاً غير متناسقة تتغيّر أحجامها وأشكالها مع كل هبة ريح تهز الأغصان.
أحدق فيها متحرّكة دائماً فأرتاح، كما تريح رؤية البحر ورؤية النار ورؤية المطر.
تريح من الجنون الذي يزحف. في أيام الحرب حلوة كلمة يزحف.
الجنون يزحف إليّ، حية ضخمة ابتلعت ثوراً. تزحف ببطء. عيناها متشبثتان بعيني وأنا لا خيار عندي للتخلص منها إلاّ القفز من الحافة العالية تحت البركة، فأبواب البيت مقفلة والمفاتيح ليست معي، ليست معي.
إمّا انتظار الحية، إمّا القفز العالي. إما المجهول بعقلي، إما المجهول بجسدي. نفسي لا أتحدث عنها، إنها في الحالين هالكة. فقدت الإيمان.
الحرب أكلت إيماني كما أكلت فناجين القهوة، كما أكلت زجاج المقهى، كما أكلت آمال الصيف الذي راح والشتاء الذي سيجيء.
وأنا أتطلّع إلى الأشجار والسماء المقطّعة، أشعر بأسف لم يصل إلى الغصّة بعد. فالحية بعيدة نسبياً، إذن الحافة أيضاً. إذن عندي بعض الأمل. أترين نسبية الأمل؟ نسبية الفرح؟ نفرح لأسف أحياناً!
أتعرفين لِمَ آسف؟ لذكريات لن أستطيع أن أحملها معي، أَبَقيتُ على المقعد أم قفزت عن الحافة.
أيتها الملكة
أتذكرين؟ كلّما كنت أفكّر في الموت كنت أقول لك: ما آسف له، ذكرياتي التي لن أحملها معي. والجنون، أليس توأم الموت؟

آلمتني عيناي من التحديق فوق.
البلاط الحجري يشدّ نظري إليه.
من خلال شجرة الفيء الشمس تترقّص عليه بقعاً تجيء وتختفي، وتهيج نملات سود صغيرة في كل صوب مفتّشة لا أدري عما، ثم تتوقف، ثم تدور، كأنها ضيّعت طريقاً عرفتها في حياة أولى.
هل هناك نمل أهوج ونمل رائق؟ أعتقد. كنّا صغاراً نسمّيه النمل المجنون. أنا ببالي أن أسميه اليوم النمل العبثي لأنه عاد أنه لا يعرف من أين أتى، لا يعرف إلى أين يذهب ولا متى ولا كيف، ولا لماذا هو هنا، يحوم حول غداء وهمي، حول طريق وهمي، حول هدف وهمي، كأنه أولاد سيزيف ينتظرون صخرته لتقع فيرثوا شظاياها.
أيّتها الملكة، أيتها الملكة
أتريدين أن تطمئني إلى الحية؟ كأنها توقفت، جمدت مكانها. لا، ليست مغمضة العينين، لم تزل يقِظة، ذهنها نشيط لكن جسدها مثقل لم تزل في أولى مراحل هضمها الثور.
عيني تتسلّى بالنمل، يداي متكمّشتان بالمقعد.

يوسف، يوسف! نادت المرأة الكهلة. إفتح لي الباب الحديدي، وقفتُ، فتحت الباب. قرّبتْ قبّلتني كالعادة. لأول مرة تقززت من رائحة البقر في ثيابها.
– متى أتيتْ؟
– متى هربتْ!
– نحن هنا في مأمن لن يقصفنا أحد، صدِّق!
– الملجأ إيمان يا سعدى
– قل هذا لبنات بيروت، أنا لا أفهم بالملجأ
– لكنّكِ تكلّمتِ عن مأمن
– لا تتفلسف، أعطني سيكارة
– الأبواب مقفلة، المفاتيح في الداخل، دخّني من غليوني.
أولعت سعدى الغليون، ملأ ريقها حَلْمَته، أغمضت عيني كي لا أراه، كأني أودعه. لا حوار بيني وبين سعدى اليوم، لا حوار بيني وبين أحد.
الصمت الداخلي شوار الجنون، الجنون حيّة تزحف صوبي متشبّثة بالنظر في عيني، الحية أكلت ثوراً.
إسْتِحالة أية شفافية في كياني تجعلني ضعيفاً كالثور، مهيّأ للتعطيل، ومن مأكل الحيّة.
قالت سعدى: أسمعت أخبار الحرب؟
– لا
– يقصفون مستديرة ساسين والأسواق و...
تطلّعتُ سعدى كالأبله، عرفتْ أني لا أسمع ما تقول، أعطتني الغليون، مسحته بقنبازي ودخنتْ، طعم فم سعدى كرائحة البابونج.
مسحت سعدى فمها بكمّها وقالت:
– الإذاعة قالت أيضاً...
– ...
– ما لك لا تجيب
نكعتني، خافت أن أكون متّ. تحرّكت عيناي.
– ما بك؟
قلت:
– يا سعدى انعدام التراخي، انعدام الظلال، تصوّري جسماً صفيقاً لا ظل له في الشمس. أنا هكذا، لم يبق لي ظل في الشمس ولا في الفيء ولا على الغد ولا من الأمس، مربوط إلى الحافة والحيّة.
فتحت سعدى فمها، وارتخى جفناها تتفرّس في وتتمتم:

«مجنون، مجنون»
– لا، ليس بعد، لم تصل الحية، قلت.
وقفت سعدى، الرعب على وجهها، أمسكتها بشعرها، أجلستها:
– لا تتركي المقعد، إذا ذهبتِ أتت الحيّة. ألا ترين الحافة كم هي عالية؟
رفعت سعدى يدها ولمست جبيني.
قلت:
– مع أن الحافة موجودة هنا قبل أن أولد، قبل الوردة البيضاء والبركة والصنوبرة، أعرفها كما أعرفك، وكنت أقفز منها وأنا طفل، لكنّها اليوم تشبه حافة العدم.

أيتها الملكة، آخر مرة تلاقينا لم نكن نعرف معنى السرداب، كانوا يقصفون البيوت والشوارع بمدافع عبثية، وقنابل عبثية، وشظايا عبثية. خفنا، وكنّا تاعسين بائسين، لكننا حاولنا أن نبتسم وقلنا: «ونحن معاً تموت الحرب». لكننا كنا نكذب أليس نعم؟ الحرب تميت كل شيء، وبعدها تتكوّن السراديب وتخلق الأثواب، أثواب الوقاية من الزوائد. كل شيء عدا الحياة زوائد. الحرب تميت كل شيء وتكتب بالفحم على الظهور والأيدي والجباه والبطون والجدار كتابات ثخينة، وتكتب لكل واحد من إنساننا أن يحب ذاته، فقط ذاته في عزلة قلبه وخوفه وسرداب وحشته.

قالت سعدى:
– إضحك، إضحك، لا تخف، أنت في مأمن، سأقطف لك زهرة!
وهمّت.
– لا. لا! أتركي الزهور حيث هي
– لِمَ لا؟ كل شيء حلال للإنسان قال الرب.
– أَي رب وأي إنسان يا سعدى؟ أي إنسان؟!
– سأقطفها. تُطلِع أوراقُها الضوء، كأنها تناديني لآتيك بها.
– لا، لا، متى قُطفت اقفر منبتها وللزينة أصبحت، ولغير ذاتها صارت، وفقدتْ وجوب وجودها المجاني. أتركيها، أجمل ما فيها أنها هنا ولا تعرف أنها هنا، ولا تعرف إلى ما ستصير وإلى ما يجب أن تصير ولا يهمها أن تعرف..

تقلّصتْ أصابعي عن شعر سعدى، فقامت، نفضتْ ثوبها وصلّبتْ بيدها على وجهي وقالت:
– أبعد عني هذا الملعون يا رب.
ومشت.

الحية ابتلعت ثوراً
أنا على المقعد
الحية تتحرّك نحوي
الحية تحدّق إليّ
عيناها متشبثتان بعيني
عيناها دائرة تلفّني
عيناها شعاع ينفذ إلى جَفنيَّ المغمضين
أسمع فحيحها مبحوحاً.
الحافة عالية، عالية
لكني كنت أنزلها وأنا طفل
الحافة لم تكن عالية
بلى عالية
كان فعل ماض ناقص
كل ماض ناقص
لهاث الحية على وجهي رطب، لزج. سأهرب إلى الحافة

قد أرجع طفلاً،
لا، لا! الحرب تكره الأطفال أيضاً.
قعدتُ.
بلى سأقوم إلى الحافّة!

فتّشت عن قدمي، فتّشت عن قدمي، عن قدمي، قدمي
أضعت قدمي
سعدى، سعدى سعدى!



حبّة الخردل

زوجتي العزيزة

رسائلي القديمة كنت أكتبها إليك من بيروت، أكتبها في أماكن أنتقيها أنا. أحياناً من الروشة، أحياناً من الحمراء، أحياناً من باب إدريس وأحياناً من البيت.

وكنت أعرف إلى أين أبعث بها. كان عندي عنوانك، وعندي وصف لغرفتك وطريقك إليها وعندي تأكيد أنها ستصلك فتقرأينها.

وكنت كلما كتبت شعرت أن العالم ملكي وأنه لا يسعني. ألم أكن حراً في أن أكون حيث أريد؟ وهل يمتلك العالم إلا بالحرية؟ ويا حبيبتي، هل عرفت ممتلكاً وسع مالكه؟

كان لرسائلي القديمة، متعة غنى النظر وعمق اللمس وسكر الشم وحلم السمع.

رسائلي القديمة كنت أكتبها أيام السلم، طول عمرنا جهلنا الحرب أليس كذلك؟ طول عمرنا كنا أعداءها. أرأيت ما أحقدها لا تحاول فقط كسر عدوها بل محوه؟

رسائلي القديمة كان لها أب وأم وعراب وعمومة وأخوال.

أما هذه الجديدة فأكتبها من كفرملات، ولا أستطيع أن أنتقي مكاناً لكتابتها غير كفرملات، فكل ضيعة هذه الأيام جزيرة، والمراكب جميعها أغرقت.

صحيح، في كفرملات أماكن كثيرة، لكنها تتشابه وتتشابه فقط لأنه محكوم عليّ ألا أتنقل في سواها.

ثم، لا أعرف إلى أين أبعث بها. لا أعرف عنوانك وليس في خاطري أية فكرة عن مسكنك وطريقك إليه، ولا أعرف هل تصلك فتقرأيها.

عزيزتي

الروشة أضاعت معالمها، الحمراء باخ لونها، باب إدريس زالت، والبيت محاصر مع غيره من البيوت المحاصرة برصاص القناصين وأفواه المدافع، وأنا منفي حيث تعلمت الحرية، في كفرملات، مسجون فيها.

على حدودها، عبثية القنابل والموت الذي لا معنى له ولا مبرر.

غير أني لا أستطيع إلا أن أكتب إليك. بدونك لا حوار. وسأجد طريقة، سأجد طريقة أنا واثق، أوصل بها رسائلي إليك.

مهم جداً أن تقرأيها، مهم كحاجتي إلى الشعور بالدائم والقريب والمعبود معاً، التي حدثتك عنها قبل أن تسافري.

لماذا سافرت؟

تسرعت في الكتابة إليك! يمكن ألا تكوني سافرت؟

بلى سافرت، قرأت في عينيك أنك ستسافرين.

عيناك اللتان طالما قرأت فيهما أسفار الحلم، أسفار القربى قرأت فيهما أمس الذي راح سفراً مبللاً بالدموع.

لكن الدموع لا تمحو السفر، والصورة لا تستحضر الغائب، والذكرى وإن آنست الغريب لا تخلصه من غربته. ولا شيء يساوي الحضور.

كانوا يطلقون القذائف من خلفنا ونحن نتكلم بالحب.

كانوا يقوصون حدّنا ونحن نتحدث عن الشعور بالدائم.

لم تسقط علينا قنابل اليوم، لكننا ننتظرها، في أية لحظة ننتظرها، أحياناً نحاول عند سماع صفيرها أن نحزر أين ستقع ومتى. أحياناً نحزر.

أتعرفين من أين أكتب إليك؟

من كفرملات طبعاً، طبعاً.

ولكن أين في كفرملات؟ قلت أن كل الأمكنة تتشابه. لا بأس حاولي أن تحزري كما نحاول نحن مع قنابلنا!

لا، ليس تحت السنديانة، لماذا السنديانة؟

أولاً أحب الصنوبر ولا أحب السنديان.

الصنوبر أنيق، حنون، ناعم الهمسة، طيب الرائحة.

السنديان قاس، شرس.

ثم لا أحب أن أكتب في العراء. فعندي، فعل الكتابة كفعل الحب عمل حميم يجب ألا يعرض لنهش عيون الآخرين.

لن تحزري، سأحاول أن أَدُلّك.

أنت، يوم تزوجنا، تعرفت إلى بيتنا في كفرملات، لكني لا أعرف إلى أية درجة تعرفت إلى تفاصيله. أعتقد أنك تعرفت إلى جوه فقط، صحيح أن الجوّ أهم لك لأنك غريبة ؟كل مسافر غريب، لا تزعلي ؟

– ولكن التفاصيل أحب إلى من يعايش ويعاني بقاء الديمومة.

أنا على المقعد الحجري، حد البركة، تحت شجرة الفيء. هل انتبهت عندما زرتنا للمقعد والبركة وشجرة الفيء؟ كنت تلبسين يومها قميصاً أسود وتنورة رمادية وكان شعرك أسود، أسود، قبلتك عليه وقلت: قبلة راهب.

وضحكنا. الآن لا أضحك، أقول: ربما أحببتك حب الرهبان القدماء لله.

حول البركة أوراق صفراء وأوراق يابسة تتساقط من شجرة الفيء، تتساقط دون انقطاع.

أشعر بكآبة الخريف، بكآبة المساء، بكآبة الوحدة، أشعر بالوحشة إليك.

حتى الساعة لم نسمع القنابل التي ننتظرها، عادة لا يطلقونها بعد هذه الساعة، يعني يمكن أن أجزم أنها لن تأتي اليوم.

ندمت لأني لم أهرب من المنفى، ولكن أنّى كان للغيب أن ينكشف لي فأعرف أن لا قنابل اليوم؟

لماذا سافرت؟

كيف استطعت أن تسافري بدوني؟ أتعتقدين أنه كان يمكن لي أن أسافر بدونك؟

اللون البرتقالي وهج على طول الأفق. ضفدع أسمر يقفز حد البركة، ريح خريفية تهب من خلف البيت، أوراق الشجرة تتناثر بكثرة، الصنوبرة أيضاً ترشح دموعها الطويلة، السمراء، هل انتبهت للصنوبرة؟

تقدّسُ الرهبان القدماء لأنه استحال عليهم السفر بدون الله.

كيف كان البحر؟

أين كانت عيناك وأنت تسافرين؟

على الشواطئ الجديدة؟

قولي نعم! عين المسافر لا يمكن أن تبقى على شاطئه القديم وإلا لما سافر.

سقطت قنبلة سمعت صوتها وصداه. مع ذلك لن أقول الحق معك لأنك سافرت.

لا يمكن أن يكون الحق مع من ينتقي الخوف ويترك الحب، ولا يمكن أن يحب من يستطيع أن ينتقي غير الحب.

الحب لا يخضع لمنطق الاختيار.

إنه جنون همجي.

ما تفعلين اليوم؟ أخبريني.

هل وصلت إلى مدينتك؟

ستقولين لي يوماً: إن عينيَّ لم تفارقاك وأنت تكتشفين جغرافية المكان.

وإن يدي كانت حول كتفيك في نزهاتك.

وإن مدينتك دون أمل العودة لم تكن تفي لك شيئاً، ولا حياتك.

سقطت قنبلة جديدة. أرأيت كيف تخرب كل شيء هنا؟ أما قلت لك منذ لحظات اني يمكن أن أجزم أن القنابل لا تسقط بعد الساعة السادسة؟ لكنها سقطت.

... عبثية مثل سفرك.

أليس عبثاً أن تسافري؟

أن تسافري هكذا؟

أن تقولي لي أنك مسافرة،

أن تخاطري بالذهاب دون أن نلتقي؟

طبعاً كنت تركت كلمة مكتوبة في رسالة لا أعلم ما كنت وضعت فيها، ممكن أن تكوني وجدت الكلمة الأشمل والأكبر والأعمق من أحبك والتي كنت تفتشين عنها لتقوليها لي.

لكنك كنت سافرت في كل حال. وبقيت أنا مع كلمة.

الدّغشة* تنزل كالستار الشفاف على البحر والجبل والمدن، فتنتزع من الأشجار أشكالها، ولا تبقي إلا على نواتئ زوايا البيوت وقرميدها، وتنزل على الأوراق البيضاء، وعلى يوم آخر، كنت ما أزال آمل فيه أن أراك تنزلين الدرج وتقولين لم أسافر.

أحد عيوب تكويني تحوامي حول المستحيلات. أَوَلا يكون هذا ما أخافك أكثر من الحرب فذهبت؟ مستحيل إيماني بالمرأة المطلق، مستحيل إيماني بالحب الذي لا يعبر عنه لا بالكلمة ولا بالجسد، بل يعاش حتمياً كضرورة وجود الله؟ ومستحيل إيماني بالمجانية القصوى التي لا حساب قبلها ولا بعدها ولا فيها؟

أليس من ذلك هربت؟

كانوا يطلقون القذائف من خلفنا ونحن نتكلم بالحب.

كانوا يقوصون حدّنا ونحن نتحدث عن الشعور بالدائم.

وافترقنا وفي ظنك أن الزمن رغيف خبز نأكل منه ما نريد ونستبقي للغد منه ما نريد.

إلا أني لم آبه للمدافع وما كنت أريد أن نفترق لإحساسي بالكثير الكثير الباقي قوله ولم نقله، وإني لم أرتو لا من صوتك ولا من النظر إليك، ولا من حضورك وإني في طريقي إليك، إلى كنهك، إلى آخر نبعك، استشعر الماء يهرب مني إلى شق في الأرض لا تقوى يداي على إيقاف غمره.

قد أكون ساعتها استشعرت الغيب، استشعرت أن الحرب بعد ساعتين ستقع على جميع محاورنا، وأنّا سنفترق أياماً، لنلتقي لحظات وتقولي أنك مسافرة.

لماذا سافرت؟

الدّغشة تتحول تدريجياً إلى عتمة، غريب كيف تأتي العتمة، على

* الدّغشة، كلمة تعني في اللّغة اللبنانية العامية الغشاوة أو عدم وضوح الرؤيا.

مهل، على مهل، لون يتغير: برتقالي يصير إلى أغبر، إلى رمادي، إلى رصاصي، إلى أسود، هل تطلعت مرة إلى العتمة وهي تأتي؟ هذا المساء أنا أراها تمشي صوبي، صوب عيني، لأول مرة أراها.

الهر على المصطبة يحدق إليَّ باستغراب.
يستغرب الهر غيابي، يشعر بغيابي، غيابي عنه، وعن المصطبة والبركة والأشجار.
ابتسمت له، أغمض عينيه وفتحهما وعاد يحدق،
شعرت أنه يفسد عليّ ترحالي معك
شعرت أنه كثير الوجود
ككل موجود غيرك

طردته، فذهب متذمراً، متثاقلاً، متسائلاً، وعدت إليك
وإذا توقفت القنابل ورفع الدمار؟ ألا تظنين أنه احتمال وارد؟
إذا توقفت القنابل ما ترينني أفعل في البلد المتقمص بلاك؟ ألم تتساءلي؟
الستة الأيام التي أمضيناها في القبو المعتم لم تكن مظلمة، فوجهك كقمرية بيتنا العتيق كان معي، كقمرية بيتنا العتيق مهما أقفلت الأبواب والنوافذ، تبقى هي مفتوحة على دنيا الضوء.
أزيز القنابل حرائقها عبثيتها أنهر الخوف المتفجرة في عيون الأطفال والكبار تفرجت عليها ولم أحسها ولم أحس أن السماء سقطت على الأرض إلا وأنت تقولين أنك ستسافرين.

زوجتي العزيزة
وأنا صغير، وقع عصفور لا يعرف أن يطير بعد من شجرة الفيء.
وقع كالحظ أمامي. لشدة دهشتي وفرحتي لم أستطع أن أركض إليه وألمه، ووقفت أتفرج عليه يكرج كأنه ليس له جناحان، ولم أصدق لحظة أنه يمكن له أن يفر. وبقيت أمامه أؤجل الذهاب إليه، مسحوراً به كأني أرى في حريته بقاء حبي له، ولم أتقدم.
وضجر العصفور من المشي، وكبر فجأة فطار. أذكر أني بكيت، وأذكر أني انتظرته، وأذكر أن أمه جاءت تحوم حول البركة تفتش عنه وإني لم أعرف أن أشرح لها أنه راح.



زوجتي العزيزة
منذ يومين، الحرب متوقفة حول قريتنا. الكبار مجتمعون في قصر قديم، يفصلون لنا أثواب الشتاء.
أيامنا أنا وأنت، لم تعش حتى الريح فأسألك هل كنت تحبينها. اليوم، الريح تخرج من حيث كان.
الصنوبرة، التينة، شجرة الفيء، الدالية، تهتز جمعياً ولأوراقها خشيش، كخشيش آلاف العصافير.
الريح تخطب بحنجرة مبحوحة، الريح تكنس أوراق تشرين وتجمع ما تجمّع منها أمامي، على المقعد ذاته، تجمع أوراق الصنوبر وأوراق الدالية وأوراق التينة تحت قدمي، ثم تحملها وتنثرها عبثية كشظايا قنبلة عبثية كانتظاري إياك.
أغصان السنديانة أذرع شبح يتمشى فوقي. لا أعرف ما يفتنني بها. ألأنّ قساوتها لانت حتى الاستغاثة؟
الناس حوالي لا يتكلمون إلا على الحرب، الصحف لا تتحدث إلا عن المصير، إذاعات الدنيا تتساءل عن غد لبنان وأنا تطفو على ذهني كلمات حب أقولها عبرك للدنيا. وأنظر حوالي إلى البيوت المشرورة على السفح تجاهي، إلى قبة الكنيسة التي أكلت نصفها المدافع إلى ألوان خضرة الخريف واصفرارها واحمرارها واستغرب أن يتنازع الناس على تراب ويتقاتلوا على حجارة.
واستغرب أسرابهم تخاف أيضاً وتهرب كالطيور المهاجرة، وفي غيابها نجلس شاخصين إلى الأفق ولا ننتظر شيئاً.

أحاول أن أوقف الكلمات فلا أستطيع، أحاول أن أجد لها طريقاً فتخرج وتمشي إلى حيث تشاء كالزارع الذي ينثر في الريح ولا قوة له على انتظار خُفوتها.
منذ دقائق أراقب نحلة تطير على الأوراق اليابسة. لا أعرف بالنحل، فأتساءل عما تفتش. هل يؤكل اليابس؟ لا! ولن يُلْجِئ، فسيأتي الهواء ويأخذه ويأخذ النحلة معه. ومعه أيضاً يأخذ وهمها بالملجأ ووهمها بالشبع، ويذريها في كومة ثانية، على نبع آخر، على زهرة في حديقة.
كيف استطعتِ أن تسافري؟
بدأت تشتو، هدأت العاصفة، الرجل يقرع دلوه ليطرد الدوري.
الدوري يأكل زؤان دجاجاته على السطح.
الدلو معلق كالجرس.
تشتو. لم تزل النقاط بعيدة عن المقعد. لم أولع الغليون. أعرفت أني خففت التدخين؟
الكبار يفصلون لنا ثياب الشتاء في القصر القديم كي لا نبرد.
قلت لك لا تخافي. لا تهربي، الكبار يلهون، يتسلون بألعاب الصيف، ليسوا جديين، غداً يستكينون ويرتاحون.
الحق، الحق أقول لك صرخت. إنهم يلعبون بالعسكر، يلعبون بالبواريد. ألا ترينهم يرتدون ثياب الخيالة؟ ألا ترينهم يضحكون على التلفزيون وفي الصحف؟
الحرب خافتة اليوم. الجسور فقط مقطوعة.
بيتنا محاصر. لو كنت هنا لما استطعنا أن نذهب إليه
المقهى تقع القنابل حده
البنزين مصادر
لو كنت هنا لمشيت إليك.
الوقت مضى. كيف مضى؟ مضى خارجاً عنا. وقتنا نحن لا يمر. بالسلسلة الضخمة ربطناه، كالكلب الدرب، واقعدناه على باب ملقانا.
أتعرفين؟ في غيابك يمر الوقت في داخلي كأني ساعة ترى في نومها كابوساً. ترى شمشون يوقف عقاربها فتئن تكاتها ولا تستطيع أن تتقدم إلا دقيقة في الساعة، ساعة في اليوم.
عملت قهوتي. حملتها إلى المصطبة، جلست.
الراديو قال: إن الكبار في القصر القديم استفاقوا باكراً، وأخذوا مقصاتهم وأوراقهم، وراحوا يشتغلون. لم يبدأو بالقماش بعد، ما زالوا يركزون صورة الثوب. أحسن آه! هكذا يطلع الثوب أنيقاً.
شربت قهوتي، بقيت أشربها، لم أزل أشربها.
الشمس عادت اليوم، الريح المجنونة سكنت.
هل كنت تعتقدين أن الريح لن تسكن؟
القوارب الصغيرة تنطلق من بحركم حاملة مشردينا.
القوارب الصغيرة تحمل الأطفال دون لعبهم.
أتذكرين؟ عندما كنت تجمعين أغراض السفر. ألا تذكرين؟ أنا أذكر: أخذت معك كل شيء إلا لعب الأولاد.
القوارب الصغيرة تنطلق من بحركم.
تحمل الكبار دون أحلامهم
تحمل الشيوخ دون ماضيهم.
لكنها تقول أنها تنطلق إلى أبعد من مرمى القنابل يفجرها رجل يلبس ثياب الخيالة، ورجل يلبس ثياباً فرنجية لفرط حبه إياها ينام وهو فيها.
أحلف لك فيها ينام، ثيابه الفرنجية.
احتمال عودتك وارد؟ كيف ومتى؟ وإذا التقينا؟ من أين نبدأ؟ من حيث توقفنا؟
أم أن الضباب سيغشى عيوننا فنحاول أن نهول له ليبتعد؟
تكنيز الشوق، تكنيز الخوف، تكنيز القلق، تكنيز العنف.
وقطعان الحيوانات البرية تجتاز مجاهل الفراق.
والحب الذي يبقى، كالجثة المنتفخة على قارعة الطريق
الجثة التي تخاف الموت.
الجثة التي يخافها القبر!
الحب الذي ترك كشيء ثمين خبئ إلى حين العودة إليه
حين إمكان العودة إليه، هل يبقى كما كان؟
عمل الزمن في الحب ليس كعمله في الشيء
الحب ليس ذهباً ولا لوحة.
الحب دون استوائه على العرش، كطفل دون لعبة.
الطفل الذي في هربك أخذت له كل شيء إلا الدب القماشي، الحافي الصوف، الذي بلاه لا يستطيع أن ينام.

جرس الكنيسة يقرع
الصورة المجرحة حملها الصدى إليّ
الساعة الرابعة
لم أفتح الراديو أسمع أخبار الكبار
أكلت وحاولت أن أنام
تذكرت: لم نأكل ولا مرة معاً.
خططنا للسلم، ظننا أن الوقت معنا كما الزمن لنا.
أشياء وأشياء كنا نقدر أن نعملها ولم نعملها...
قلنا: فلنترك للأيام المقبلة شيئاً.
على مهل، على مهل، مشينا.
لم نعرف أن ساعة الرعب على المفترق، لاطية تحت الحافة، كاتمة أنفاسها خوفاً من أن ننتبه لها.
إذا عدت. أتراني أحادثك كمن مسي أنك سافرت؟
على البلاط آثار شمع من أيام القصف،
على الطاولة الزرقاء أيضاً
على ضوء الشمعة يبدو قبو العقد* كعالم الحلم
دخان الحرائق يتصاعد من خلف الجبل.
أصوات الرشاشات الثقيلة يحملها صمت الليل ويتنزه بها حتى كفرملات.
القمر كبير يتمشى، هادئاً، متجرداً، بوذي يقول: الحياة عذاب، الموت عذاب، الفراق عذاب، وليس أعذب من تجاهل أي تعلق.
دخان الحرائق يتقلد الغيم
يركض في ضوء القمر
يحجبه أحياناً
بيوت السفح أمامي تضاء تباعاً كبيوت مغارة الميلاد.
الميلاد بعيد.
لماذا تضاء بيوت المغارة شهوراً قبل الميلاد؟
في بالي أن أترك كل شيء وأتبعك
أن أبيع كل شيء.
أو أهب كل شيء
لا فرق
معك لا يهمني أن أمتلك شيئاً
وبلاك لا قيمة لأي شيء أمتلكه
بيوت السفح تضاء تباعاً كبيوت المغارة، بعيدة، قريبة:
ما أقرب الضوء!
مؤنسة تصمت على أسرارها
رائحة مطرة الأمس لم تزل في المصطبة
رائحة المطرة الأولى التي نشمها كل سنة، ونحبّها كل سنة.
قليلة الأشياء التي تذهب وتعود، وكلما عادت شعرنا كأننا نتعرف إليها للمرة الأولى

أبي لم يستطع أن ينام الليلة. أسمع خطاه في الطبقة العليا.
جميعهم ناموا.
أضأتُ الشمعة، وضعتها على الطاولة خلف ركيزة العقد. استلقيت على الصوفا.
خفقان ضوئها متموج على الحجارة العتيقة، على العتبة الأنيقة.
أحياناً جسم يتراقص.
أحياناً وجه يروح ويجيء
أحياناً يدان تفتشان.
والعقد عميق، بعيد سري.
العقد بحر يتحرك.
لا يشبه في العقد حجر حجراً آخر.
ليس في العقد حجر في حجم حجر آخر.
لكن العقد متجانس كله.
من خلال الأبواب والشبابيك المثقلة أسمع صدى قنابل على حدود كفرملات
وأسمع فوقي خطى أبي، متوازنة، رصينة واثقة.

* العقد، حجرات ذات أقواس.





توقفت الخطى.
عادت.
سمعت الباب فوقي يفتح. أعرف صوته.
منذ ولدت أسمع هذا الصوت
منتصف الليل ولى من زمان
خطى أبي على الدرج: أكيدة، صلبة، عنيدة
القنابل تنزل على حدود كفرملات قمت إلى الشباك أتفرج على احتراقها وهي تقع
خطى أبي تحت الشباك.
أطليّت
رأيته واقفاً على حافة الجل بقنبازه الذهبي،
في يده منكوشه الصغير
ثم رأيته يقعد على الحافة
يدلّي رجليه
القنابل تتساقط.
لم أناده ليدخل. عرفت أنه لن يدخل.
الضيعة استفاقت، هربت، تخبأت في أقبيتها
أبي في الجل، منكوشه في يده.
رفعه، غرزه في الأرض، وأعاد وأعاد حتى احمرت أحشاؤها، فعرفت أنه سيزرع غصباً عن الحرب، وغصباً عن القنابل، وغصباً عن السفر، في قلبي حبة الخردل.

10 آذار

أمس كانت تجربة الموت في جلدي. للمرة الثالثة في جلدي. مستحيل أن نكتب عن تجربة الموت ونحن فيها. ومتى مرّت نكتب عنها كتابة بائخة. تجربة الموت تقتل أي تعبير، لأنّها تقتل قابلية الحياة. ليس الجوهري أن تكون اليدان طليقتين. الموت ليس في اليدين ولا في العينين بل في الأمل الحقيقي. ولا يعبّر عن الموت إلاّ بالموت.

وأنا في الفراش تصوّرت أنّي أكتب.
طلع الصباح. كفرملات بدأت تهمّ بالوقوف. الأبواب والشبابيك مقفلة. لا أعرف هل السماء غائمة. أنهيت فنجان قهوتي الأول. اليوم فرصة. سأشرب قهوة وأدخّن دون تحديد.
قمت، جمعت أشيائي: الركوة، الفنجان، المحفظة، المفاتيح، النظّارتين، الابريق. سأحملها كلّها دفعة واحدة إلى قبو العقد وأكتب خطّياً.
وضعت الفنجان على صحنه والصحن على الركوة.
الأبواب والشبابيك مقفلة، لا أعرف هل السماء غائمة. أعرف أنّها لا تمطر، وإلاّ لسمعت نقر المطر على القرميد. وأعرف أن الريح ساكنة وإلاّ لسمعت خشخشة أغصان الصنوبر وأوراق الحور.
فتحت باب الشرفة، السماء تبدو منه زرقاء. قد تكون غائمة من صوب الشبّاك. أكتفي بما أراه. تجربة الموت علّمتني أن ليس من الضروري أن نعرف كلّ شيء. صيصان ابنتي ترعى في الجلّ.
خرجت إلى الشرفة. بَرْد. كنت قلت لها أنت شرفة في حياتي. تطلّعت. ليس أبدع من الشرفة. إنها المطلّ على الدنيا: الندى على الزهر، على الأغصان، على العشب. أبي لم ينكش جلول الجنينة بعد. الصيصان ترعى العشب والندى. بَرْد. رفعت يديّ إلى كتفيّ. لم يقل لي اتّق البرد. لم يقل لي اتّق أي شيء. قلّب شَفتيه فقط.
برد. برد.
تركت الشرفة. ما أكره تَرْك الشرفة حتى ولو إلى قبو العقد* النازلة من قببه قناديل مثل قناديل الكنائس القديمة، والدي تحبّه هي، ولأنّها تحبّه ما عادت عيني تنقلع عن حجارته. لكنّ الشرفة مطلّ على الدنيا. وليس ما يعادل رؤية الدنيا من مطلّ.
أقفلت الباب وقلت عالياً: لكنّها لم تبق شرفة في حياتي، لذلك لا أكترث لقبو العقد ولا لقناديله.

ابني أيضاً انهارت أمامه الشرفة. صار يشتغل بالإذاعة، قال. قلت له الإذاعة ليست شرفة يا ابني. الشرفة إنسان آخر فقط.
أمس مساء، ابتعدت تجربة الموت عنّي. أستطيع أن أكتب اليوم. أكتب قليلاً جداً عن الموت. مستحيل التعبير عن الموت وعن الحرب وعن الحبّ إلا بالموت والحرب والحب. الكلام على أشخاصهم فقط ممكن.
عدت إلى أشيائي. حملتُها: المحفظة تحت إبطي. المفاتيح والنظارتان في جيبي، الغليون وعلبة التبغ وعلبة الثقاب الكبيرة في جيب آخر. بيدٍ حملت الركوة وفوقها الصحن والفنجان، وبالأخرى الابريق. بقي الضوء، يجب أن أطفئه. أطفأته بذقني، دخلت القبو، أكتب.
آثار تجربة الموت في جلدي، لا أستطيع أن أكتب عنها. أتذكّرها فقط، أستشعرها عائدة ذات يوم. يجب أن أنساها. أكتب. الكتابة هي الانقاذ الوحيد.
لم أفتح الراديو لأسمع أخبار الحرب.
أوراقي على الطاولة المطعّمة. عليها حبر أحمر لا أدري من أين جاء.
وهل أنت ضدّ الأحمر، قلت؟
أُكتب بالقلم الأحمر.
وأنا في السرير كنت أكتب بشكل آخر.

فتّشت عن عينيها أمس، لم يكن لهما أجنحة. عادت الغصَّة إلى حلقي.
لم أقل لها أن الغصَّة عادت إلى حلقي.
من زمان، عندما عَمَّرَتْ شرفة على دنياي قلت لها أنّها طردت الغصَّة. لو قلت لها أمس أنَّ الغصَّة عادت لعرفت أن الشرفة انهارت.
من زمان أيضاً، عندما كانت تتكلّم كنت أحبّ أن أغمض عيني وأتسمّع إليها. أمس، كانت عيناي مفتوحتين. من زمان، وهي تتكلّم، لم يكن لكلامها أمكنة. أمس كانت أكثر كلماتها أمكنة، وأسماء وأشياء. من زمان كنّا نعيش في فوضى التشرّد البعيدة، فوضى الأمل الذي لا أوّل له ولا آخر، فوضى الحلم الواسع طوال خطّ الأفق. أمس كانت تنظّم الأمل، تمنطق الحلم، تسجن التشرّد ضمن غرفة من الباطون فيها مروحة مكسورة واقعة على السجّاد.
كالميتة شعرت بها بين ذراعي، مع أنّها كانت مرتاحة للتنظيم والمنطق، والمروحة المكسورة.
الرصاص الذي لم تسمعه هي أمس، أنا سمعته لأوّل مرّة، على كثرة ما كان يقال لي قبلها: أُطْلِقَ الرصاص، فأقول لم يُطلق رصاص، فيضحكون: أنت أطرش! مستحيل ألاّ تسمع.
معها لم أكن أسمع صوت الرصاص ولا جلبة الحرب، ولا أرى الموت. أقوى من الرصاص ومن الحرب ومن الموت كانت الشرفة.
لم أقل لها بعد أن الغصَّة عادت.

أتَذَكَّر تجربة الموت في جلدي، أحاول أن أستشعر مكانها. تجربة الموت لا تُدْرَك باللمس أحياناً. يحدّد مكانها فقط، كعمود إشارة على طريق.
أكتب بالقلم الأحمر، أفتش عن اللغة الجديدة لأعبّر بها، أفتّش عن الكلمات القديمة لآنس بها. فتحت أوراقي.

2 آذار

دخان الغليون يحرق لساني.
بيننا فقط تواصل الذعر. قالت: بياض عيني أكثر اصفراراً اليوم.
قلت: أين الرسالة التي وعدت أنّك ستكتبينها لي؟ قولي ما كنت ستكتبين.
على وجهها حروف غير مقروءة، مبعثرة، أحاول أن أجمعها كما في الكلمات المتقاطعة. أحبّك قلت. الغبار على الطاولة، رجلاها على الغبار. أتطلّع إلى شعرها.
أيمكن ألاّ يكون الحب سوى تعبير جنسي؟ بيننا فقط تواصل الذعر. في الماضي استطاعت أن تطرد من خلف عيني شبح الفاجعة. أنا معك لأنسى. معكِ أنسى كل شيء. إذا كان النسيان فقط سبب لقائنا فما معنى أن أكون معك إذاً؟ ويسكي؟ هيرويين؟ هرب... هرب. والحب؟ ها ها ها الحب أكبر مغامرة هرب. من سجن إلى صحراء، أو من صحراء إلى سجن. المأساة أنّي أعي اليوم أني أريد أن أكون معكِ فقط لأنسى الفاجعة.
أخافُ تواصل الذعر بيننا، أخاف الحروف المبعثرة على وجهك والتي لم أعرف أن أجمعها. أحب شفتيك بلا حمرة. ملّستُ على رجليها. مسحتُ غبار الطاولة بأصابعي. تركت الغليون. أولعت سيكارة. لا أحب السيكارة، لكنّ دخان الغليون يحرق لساني. طعمٌ مرٌّ في فمي، من أين جاء؟ لم أشرب قهوة! عرفت. لم أفرك أسناني. بلى! فركتها، إذن من أين جاء الطعم المرّ؟
ملّستُ على وجهها. نعومة بشرة عنقها ردّت إليّ بعضاً من اللغة الجديدة. أسرع لأقرأ الحروف على وجهها، أرى عينيها غائبتين عنّا. تتبعثر الحروف. أقبّل خدّها. طيّبة رائحة جلدها. أقبّل شفتيها، طويلاً... باجتهاد.
بين شفاهنا اليوم تواصل الذعر فقط. ألْحسُ كفّها، تضحك لأنّها لا تحسّ. أضحك أنا أقول: «اذكر، كنت مرّة مع امرأة...» تضحك هي تقول: لا تفكّر إلاّ في الجنس أنت. وَقَفَتْ.
لم ألحق بها، عرفت أنّها تتمشّط أمام المرآة. ستذهب.

1 آذار

تمطر. المقاتلون ينظّمون السير. تمطر. أنا وابني نتّقيها في مدخل أحد البيوت. دكّان حلاّق عن شمالنا. دكّان الحلاق واجهة زجاجيَّة



كلّه. زجاجه مكسور من أيام القنابل. نايلون محل الزجاج. الزجاج شفّاف، النايلون ضبابي. دخلت امرأة الدكان، الماء يزرب من مظلّتها.
سألتُ ابني: لماذا انقطعتَ عن جوانا؟
المقاتلون ينظّمون السير، بواريدهمِ في أكتافهم، أفواهها صوب الأرض. قال ابني: لم نتفاهم. قلت: لمَ لم تتفاهما؟ قال: الأحرى لم نستطع أن نخلق حواراً دائماً.
الأطفال يخرجون من المدرسة. قُرْبَنا مزبلة حرب، حدّها أكوام زجاج محطّم. تمطر. أطفال يركضون فوق الزجاج المحطّم. صرخ ابني: يا أولاد لا تركضوا على الزجاج، لا تركضوا على الزجاج. ضحكوا. قلت: انفصال نهائي بينكما؟ قال: أرأيت انفصالاً يلحم؟ قلت: هذه من اختراعاتي. كل شيء يلحم لأن لا شيء في الأصل غير منفصل. هزّ كتفيه. صمتٌّ. فليكتشف وحده. قال: أتعرف أن الحساب الحديث لا يؤمن أن واحداً وواحداً يجمعان دائماً اثنين؟

تمطر. تطلّعت إليه، تطلّعت إلى دكّان الحلاق. المرأة جالسة على كرسي مريح، تاج الحلاّق على رأسها. تطلّعت إلى الأطفال يركضون على الزجاج المحطم. تطلّعت إلى ابني، في عينيه حجر فلسفي يجمع واحداً وواحداً واحداً. تذكّرت أني يوماً قلت لها، إن واحداً وواحداً ممكن أن يُجمعا في واحد فقط. فضحكت وحاولت أن تبرهن أن واحداً وواحداً يجمعان تسعة على الأقل.
فتحت مظلّتي ومشيت في المطر. يجب أن أترك هذا المكان.
لفرط ما نحاول ألاّ نفترق، صرنا لا نعرف أن نلتقي. كل يوم تهديني شيئاً صغيراً، كبيراً، تافهاً، ثميناً لا فرق، المهمّ أن تهديني، أفهم لماذا. أفهم لماذا. لأنها تعجز عن إعطائي الأهم؟ لا! المهم الوحيد، الواحد.

10 آذار

أقرأ في أوراقي. أكتب بالقلم الأحمر. الأحمر علامة فارقة. الكتابة اتّصال لا أعرف بمَ. الكتابة تنسيني الفاجعة، تنسيني تواصل الذعر بيننا وتجربة الموت.
على الورقة، أستطيع أن ألملم الحروف المبعثرة، أجمعها في كلمات.
انتبه لخطّك. الخطّ اصطلاح. من يكلّم من؟ من يتكلّم مع من؟ القصة تمشي. القصّة؟ ما هم إسمها، شيء يمشي، يركض، يرشح التعب والغصَّة. وحدها في ما مضى استطاعت أن تطرد الغصَّة. لماذا يجب الحديث دائماً عمّا مضى؟
أكتب. إحساسي يسبق كلماتي، أرشح إحساسي لزجاً على الورقة، يلزمني أكثر من رشح إحساس، أنا في حاجة إلى نزف، إلى ركض على الزجاج المحطّم.
لو لم أكن جباناً لأخذت شفرة... لا، لا، أكتب، أكتب فقط.
أشرب قهوة وأدخن، اليوم فرصة، وهو لم يقل لي اتّق شيئاً. قَلّب شفتيه.
أكتب. الكتابة فقط هي الانقاذ. مئة صفحة في الشهر معدّل كتابة

جيّد، شرط أن لا يكون قَصاص كتابة، سجناً آخر، استجواباً آخر.

الخوري الياس متّكئ على طاولة فوق المنبر. طاولة سوداء منخورة. أسماء تلاميذ محفورة عليها بالسكّين.
لماذا يضعون المعلمين على المنابر؟
الخوري الياس نعسان، الصيف بَكّر. العرق يقطر من جبينه ولحيته. «طابيّته» مرتاحة على رأسه الأشيب، رائحة النبيذ والبخور والحامض تفوح من جبّته، ورائحة خشب الشوح المدهون من طاولاتنا، ومعها روائح أجسادنا النيّئة، الدسمة.
الخوري الياس يشرح، وعيوننا تتطلّع من الشبابيك إلى لهاث الصيف على الدرب الرملية وفي الخربة وفي الجلول المُسْبَلَة العشب.
رأس الخوري الياس ينزل نحو صدره، الكلمات تتوقّف في فمه كلما سرق النومُ لحظة من عينيه.
كفرملات تَشخر نباحاً ونهيقاً وصياح ديكة. وقف الخوري فجأة ونادى:
– يوسف!
– نعم معلمي
– قم إلى اللوح، اعرب: ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه
– ما: فعل ماض ناقص، كلّ مبتدأ وخبر.
– اسكت، اسكت يا أبله. لو عرف أبوك كيف تكسّر اللغة العربية لكسّرك مثلها. اقعد، الصفّ كلّه مقاصص. فليكتب كل واحد ثلاثمائة سطر!
تعبت أيدينا من الكتابة القصاص، الخوري الياس مكتوف اليدين على طاولته، رأسه الحاسر عليها غاف، يعرق.

ظلال القناديل كثيرة فوق يدي. أكتب بالقلم الأحمر، مرّت زوجتي، تفرّست في ما أكتب، حاولت أن تقرأ: «انتبه لخطّك فقد يكون سبباً مباشراً للكثير من المتاعب»... وأزاحت كرسيّاً وجلست وضعتُ القلم على الأوراق.
قالت: «الشحطة فوق السين لا لزوم لها، الشحطة فوق الكاف بعيدة، الشحطة فوق الطاء عالية جداً، الراء المتّصلة تشبه الواو عندك».
دَخَّنَتْ غليوني طويلاً، وارتاحت، ثم تنهّدت وتابعت: «الخط اصطلاح. امش عليه لئلا يَهلكك. ألا تعرف ما حصل للشبان المخنثين في المدينة، أيام عمر بن عبدالعزيز؟
أهمّ شيء الخط، أهمّ من اللغة، أهمّ من الاتصال. الخط أشرس من الفاعل، أكثر لؤماً من المفعول به. إنّهما أصل اللغة، أصل الاتصال: من يفعل ومن يقع عليه الفعل أي: مشكلة الفتح والضم.
مع هذا الخطّ أهمّ.

وقفت زوجتي، مشّطت شعرها بأصابعها، حَدّقَتْ، قالت: «أهمّ لأنه اصطلاح. أقوى من الحق، أثبت. أقوى من النزوات، واضح. أقوى من المعرفة، أخفّ عذاباً.
تطلّعتُ إلى صفحاتي، صحّحت الشحطات والرآت. ذهبت زوجتي.

20 **شباط**
أشعر أنّها تعبت منّي: كثير الجمل الاعتراضيَّة، مطالب بالمجانيّة، بالعفويَّة، بالقفز فوق الأشياء. أحاول دائماً الهروب من السجن.
الكلام على الأشياء غريب، أيّها السجن.
الطفل يركض على الشرفة. الطفل يزيل مسافة لا يسمّيها، بركضه، ذاهباً آيباً. المهم الوصول والرجوع وقطع المسافة.
المسافة انفصال. لِيُلْحَم، يجب أن يكون في حالة قَطْعٍ دائمة.
الوقت يدخل في المكان، المكان في الوقت. المشكلة مشكَلة جسد، لولاه لما كان للوقت ولما كان للمكان أهميَّة.
يشتهي جسدي الحياة التي لا تفنى، والمكان الذي لا حدود له.
أحاول إقناعه أن اشتهاءه هو السجن. وإني هنا أحاول الهروب بالقفز على الأشياء، بالمجّانية، بالعفويَّة.
ما أصغر الملكية أيها السجن.
أيّة ملكيَّة!
كل تملّك أقلّ من تملّك العالم لا قيمة له، أقول. وتملّك العالم لا يكون باحتوائه ولا بشغله، ولا بالسيطرة عليه، بل بالاستغناء عنه كضرورة.
سيّد الأشياء من لا يريد منها شيئاً.
وأقول: السجن ليس انعدام الحريَّة، والحريَّة ليست امكان فعل كل شيء.
السجن هو تشهّي الأكثر والأحسن والأهم والأكبر، والحريَّة هي إمكان التخلّي عن الملكيَّة.

بالسر، تقول إنّها صديقتي. أمام الناس تتصرّف كأننا رفيقان. لصديقتي سيّد. سيّدها يمنعها من مصادقتي. يسمح لها أن تستعملني بحيث أصير رديفاً، نزهة، سبحة لقتل الوقت، إمكان عبور عند الاقتضاء.
وعليّ أن أفهم. الصديق، قال، يجب أن يفهم صديقه، حتى لو كان للآخر سيّد، حتى وإن كانت الصداقة اختياراً، ولا اختيار إلاّ في الحريَّة.

مثل صديقتي، تماماً، صديقي الآخر، لصديقي الآخر سيّد أيضاً.
لا! سيّدان. لا! أسياد.

10 **آذار**
ذاكرتي تركض إلى الأطفال يمشون على الزجاج المحطّم، في عيونهم أحجار فلسفيَّة تجمع واحداً وواحداً واحداً.
أنا، كِتَاب الحب أطبقته، منذ عقد اللوز، وكُسِّر، وقدّم في صحون.
منذ ما نظّمتُ فوضى الأمل، ومنطقتُ فوضى الحلم، وسجنتُ التشرد في غرفة من الباطون فيها مروحة مكسورة واقعة على السجّادة.

الكتابة الانقاذ تفعل فعلها. وحدها الانقاذ. عدا الكتابة كل شيء قصاص. منذ الصباح أكتب. الآن عتّمت. أسمعُ البَرَد ينزل على القرميد، على خشب الشبابيك. من زمان لم أتحسّس مكان تجربة الموت في جلدي. شربت قهوة ودخّنت. وسأشرب كأساً الآن، الآن؟!
لا. سأكتب.
سأشرب وأكتب، وأكتب وأشرب.
أكتب، بالحبر الأحمر عن الحرب.
كتاب السلام لم يفتح بعد.
أنا الآن في الأرض المنزوعة السلاح.
القنّاصون فوق سطوح الأبنية.
الربيع أكل اقحوانه قبل أن تأتي السنونو. الربيع ليس شهوراً، الربيع ساعات، أحياناً لحظات. الربيع أَكَلَ زهر دُرّاقه ومشمشه ولوزه. الكتابة أكلَتْ الشرفة وتجربة الموت وشبح الفاجعة.
أشرب ويسكي وأدخّن وأكتب بالقلم الأحمر. وأتفاءل.
لا أعتقد أن أي شيء نهائي. أن أي شيء جدّي. لا أؤمن بنقاط اللارجوع، حربنا لا أراها نهائيَّة، حتى لو كانت كلعبة الشطرنج.
الشطرنج مهما صعبت أصوله يبقى لعبة.
في كل ما جرى أستشفّ اتّفاقاً على أصول كالخيط الرفيع. أهو اقتناعي القديم بذكاء الصدفة؟

جميع من ألتقيهم يروون قصّة نجاة من موت.
أنا أيضاً أروي قصة.

وحدهم، الذين قتلتهم الصدفة، لا يروون.
لكن الموضوع ليس في صمت الذين ماتوا.
الموضوع موضوع نسبة.
ما عدد الذين ماتوا؟
ما عدد الأحياء؟
الفرق شاسع لمصلحة الأحياء واستطراداً، حساب الاحتمالات جاء لمصلحة الموتى لأنّهم كانوا القلّة.





لن أفتح راديو اليوم لأسمع رواية المحاور.

18 شباط

آكل حقدي. آكل الظلم. آكل السأم. أيّة بئر أنا.
وفي خيالي أعذّبهم ثم أقتلهم وأنجو فأتشفّى.
وراء الطاولة، ضعيفاً، كالتمثال، تشفق عَلَيَّ قلوبهم ولا يُفصِحون.
حبّهم لا ينفعني، فالحب الذي لا يُعلَن ضدّ الموت، كالطفل الذي لا يولد.

16 شباط

دخل الطفل كنيسة جديدة، ركع دون أن يتطلّع.
ثم رفع رأسه شيئاً فشيئاً ليطلب. في صدر الكنيسة صورة.
خرج الولد. لم يطلب شيئاً. في الصورة (.....)

13 شباط

بعض من الربيع في حفافينا، بعض منه على الشجر، وبعض أكثر، كالموجة في الجلول. في كل مرّة نرى الربيع نتأمّله ونتكلّم عليه وندهش له، كما ندهش لضحكة الطفل كل مرّة يضحك، ولحياة المسيح كلّما استعدناها أو رأيناها أو قرأناها.
الربيع والطفل والمسيح بدء حياة.
كثير من الأشياء يجب إعادة عملها: الحائط، مسكبة الورد وحياتي.
الإعادة مستحيلة لأنها من الصفر تبدأ. وعيني من الدنيا على كميّتها.
سَنَدت الغليون بحذائي كي لا يقع رماده على البلاط الممسوح.
الشمس تلمع على الورقة. جبل الأشجار تجاهي لم يزل لابساً مسوح الشتاء.
ألوانه ألوان البساط العتيق، وأخيلته أخيلة القضبان المقصوصة الملقاة على حفافي جنينتنا عكاكيز للوبياء أيام الصيف.
كل ما يبدأ يعني أنه بدأ يروح.
الطفل والربيع وحياة المسيح. ومنذ البدء حتى النهاية يجب أن يكون كل لحظة بدء جديد.
لكنْ بعد الطفل الرجل وبعد الربيع الصيف ومشكلة المسيح أنه لم يعد.
ينتظر نهاية الزمان.
زمان غير زماننا.
زماننا تواصل الذعر بيننا، وكلما ولد يموت.
وزمانه تواصل الحياة ولا يولد ولا يموت.

11 شباط

أعجبت الفتاة الجندي، طلبها من أمّها.
خافت الفتاة. قالت الأم: أنت لا تحبّها.
ضحك الجندي، أخذ سكّينه، قطع أذُنَ كلبة الفتاة. قدّمها إليها برهاناً على حبّه.

أحذية المقاتلين على الأرض اليباس.
أحذية الجنود على السجاد.
أحذية الجنود على أعناقنا.
أحذية العُجّز على شفاهنا نقبّلها كي لا نموت.

أهربي معي نتخبّأ في سراديب الخوف ونتحابّ.
في سراديب الهرب نتحابّ.
الهرب من الذات، من الآخرين، من احتلال الجنود، من أحذية المقاتلين.
من أزواجنا وأولادنا.
وإذا خلعوا الأبواب
وقطعوا سلاسل الأمان
وفي الفراش رأوك عارية فلا تُظهري بؤسك.
وإذا قبضوا علينا ومثلوا بنا، لا تندمي.
أن نتلاقى، حرّيتُنا الوحيدة التي لنا.
ألا تستأهل الحريَّة الوحيدة أن تُمارَس؟
في وجه الأحذية
والمقاتلين والجنود والسأم والسجن والأرض اليباس؟

9 شباط

الجريدة حدّي:
«السلطة تواجه من مركز الضعف تحالف القوى المتصارعة؟
رياح شمالية تربك الاهتمام الجنوبي
مسلحون يخطفون للمرة الثانية 17 شمالياً عند مفترق الحلوة».
الطقس بارد. تحت معطفي الكاسيت؟ لا أريدها أن تظهر؟ والمحفظة. المظلّة معلّقة في مرفقي. في يدي الثانية سبحة العاج. السبحة باردة، تنتقل حبّاتها حبّتين، حبّتين، بين أصابعي، وما تكاد حبّتان تدفآن حتى تليهما اثنتان باردتان. قالت سعدى: إلى أين قبل الصبح؟ قلت: إلى بيروت! صاحت: نجّنا يا رب! بيروت! وأي مجنون ينزل إلى بيروت. اليوم الدنيا ستخرب.
جادة فؤاد شهاب قطعها القنص أمس. طريق المتحف قبل الأمس.
المحاور جميعها مشتعلة. الرصاص لم يتوقّف كل النهار.
المدينة كلّها ملكٌ للرصاص، حيث يريد يقع، حيادياً، صارماً، فعّالاً.

عندما أصل لن أجد المقهى مفتوحاً. تمطر. لن أستطيع أن أنتظر ساعة تحت المطر.

سألني الجندي على الحاجز: ما تحمل؟
– كاسيت
– لماذا؟
– لأتسمّع إليها.
– وما تقول؟
– تغنّي.
قال لرفيقه: تغنّي قال، وسيستمع إليها. قال رفيقه: وما تغنّي الكاسيت؟ أغاني حب قلت. تمتم: ويكون الغداء سلطان ابراهيم وضفادع وعصافير وحلازين مربّاة، وتطلّع رفيقه:
«على مثل هؤلاء كان يجب أن تقع الحرب. لكنهم دائماً ينجون والمساكين وحدهم يموتون»
قال رفيقه: من أيّة طريق ستذهب؟ أشرت إليها فقال: خذ الثانية، على هذه تموت.
على الطريق الشمالية كومة نفايات تحترق، تخرج منها رائحة الكاوتشوك. الأكوام الأخرى لم تزل نيّئة: علب سردين، طون، هوت دوغز، قُشْر حامض، ورق خس، فضلات مجدّرة، كوسى محشي، وكوتكس.
المطر ينزل كثيفاً على زجاج السيّارة. المسّاحتان تقصّران على قذفه.
لهاث سميك على الزجاج، مسحه السائق بالرقعة الصفراء.

المقهى مقفل لن يفتح قبل نصف ساعة. المقهى الثاني مفتوح.
حملت أمتعتي ونزلت، لم أستعمل المظلّة.
على صدري بلاطة ثقيلة، متى ارتحت تنزل قلت. ثم قلت: لن تنزل إلاّ إذا توقّف القنص والقصف.
وضعت مظلّتي ومحفظتي والكاسيت على الطاولة. أخرجت غليوني وتبغي. كنت حملت أحبّ غليون إليّ وأحبّ تبغ.
نظرتْ الفتاة التي إلى الصندوق إلى ثيابي الجديدة، لم تفهم كيف يمكن أن تنشأ علاقة بيني وبين الأكياس التي أحمل.
لم أكن أسمع رصاصاً. كنت أتوقّعه: قد أسمعه بعد لحظة. بعد ساعة، وإلى انتظاره سأبقى معلّقاً. على وجهي قناع السارقين، سارقي الوقت، سارقي الفرح الممنوع، سارقي المتعة.
قَويَ المطر. دخل المقهى أحد المسلّحين. أكل صحن كنافة بجبنة. وضع سيكارة بين شفتيه، فتّش في جيوبه عن نار. قمت فأشعلت سيكارته. شكَرَ وابتسم. هل تَعْلَق اليوم، سألته؟ ابتسم أيضاً: إذا علقت هه، ودلّ على سلاحه. قلت: لا، لا، أريد أن أطْمئن. لن تَطْمئن

قال. الناس يفكّرون في الهرب. إلى أين؟ قلت. لا يعرفون! أجاب. وتطلّع إلى عيني وقال: إذا كنت تريد أن تحيا انزو في بيتك، وإذا كنت تريد أن تعيش لا تخطّط للرصاص، فلن تموت إلاّ في يومك.

لست في صدد الهرب من الموت الآن، أريد أن أعرف هل هنالك رصاص، الرصاص الذي منه أحاول أن أسرق الوقت والفرح والمتعة. الرصاص الذي صوته يقتل الوقت الكامل والفرح والمتعة.

المقهى الآخر فتح الآن.

حملت أكياسي وفتحت مظلّتي. المطر قوي، رنّخ بنطلوني فشوّه طيّاته، وحذائي، فأزال صباغه.

في المقهى الآخر جلست. شممت رائحة فساد اللقاء. شممتها في ثيابي الرطبة، المجعلكة، في أكياسي التي استحيي منها، في خوفي من سماع صوت الرصاص. شربت الشاي، دخّنت في غليوني الجيّد تبغي الجيّد. لم ألتذّ، الأحسن والأجمل والأطيب هربوا. صاروا عاديين، أقلّ، اصطناعيين.

منذ أيام كنت أعرف أني سألبس هذا الطقم، هذه القميص، هذه الكرافات، هذا الحذاء، سأحمل هذا الغليون وهذا التبغ. وآخذ الكاسيت خلسة وأكون الثامنة في المقهى، وأنتظرها لتأتي، وعندما أراها أقول لها..

ألقيت برأسي على يدي وقلت: لا أريد هذا اللقاء. ثم رفعت رأسي وقلت: الالتقاء سيحصل حتماً، ولن يكون لقاء.

منذ زمان أتهيّأ لهذا اليوم، أخطّط له، أحاذي كل خطوة من خطوات اقترابه وأُدْخل ذاتي فيها.

قبل أن يأتي، كنت استهلكت جميع امكاناته وعشت جميع لحظاته، والآن، ساعة يأتي، سأدخُل فيه كمن يدخل مكاناً لا أمل للدهشة فيه. التهيئة محت عفويَّته. الخوف من صوت الرصاص أجهز على إمكانات خلقه.

وجهي مقفل. لا بدّ أن ألبس له قناعاً. لكنّها في لحظة ستمزّق القناع. لن أتركها تمزّقه، سأسمّكه: أحرّك عيني بسرعة، أبتسم نصف ابتسامة... ابتسامة التآمر بين نخبة مكتنهي السر الواحد، أقول كلمتين، أغيّر بسمتي، أخلق جوّاً من المعاني المزدوجة.

لكنّها ستشعر أني لا أتحاور، لأن الكلمات التي قلتها وحدي وأنا أخاطبها أمس وقبل أمس وقبل قبل أمس، لن تجد طريقها إلى شفتيّ لأنّها ستكون بلا نقاط، بلا حرارة، وستقعد البلاطة على صدري والبرودة في فمي، ولن يكون وجهي وحده كافياً ليلعب لعبة الفرح والمتعة والوقت الكامل.

أُطْبق باب المقهى بقوّة. دون تفكير احتميت، تلفّت حولي لأرى هل أحد رآني. كنت وحدي في المقهى. تنفّست. الخوف من سماع صوت الرصاص. تطلّعت إلى ساعتي: قريباً ستصل. حاولت أن أضع نفسي في جوّها، علّ عُقدي تنحلّ. لم أتوصّل إلى التركيز على وجه من وجوهها. كالحصان الفالت تتنقّل في ذهني. كيف شعرها؟ الحمرة الغامقة على شفتيها؟ الفاتحة؟ مكحّلة؟ دون كحل؟ لو استطعت أن أجدها ولو لحظات لبدأت حواراً ذهنياً، كيف أريدها أن تكون، فلأخلقها قلت. لكنها استعصت. استحضارها مستحيل.

الموسيقى تزعجني، الأسطوانة مجروحة، كلّما مرّت الابرة على الجرح شعرت بها تمرّ على جرحي.

وجهها يعبس؟ يضحك؟ يبتسم؟ كيف تريده؟ قل. أحبه عندما يبتسم. كنت أحبه عندما يبتسم. كيف أحبّه الآن؟ لا أعلم إن كنت أحبه، لأني لا أدرك كيف يكون. ولا مرّة استطعت أن أحزر كيف يكون، فكيف أخلقه؟ بيني وبينه فراق كالسفر، كالمسافة.

صَمَتنا نتسمّع إلى الأغنية. الأغنية التي أعرف أن أقول لها كلمات أحسن منها، بلا لحن ولا موسيقى ولا قواف، لكني تركت غيري يتكلّم باسمي وأخفيت وجهي في شعرها كي لا ترى يأسه.

النبيذ الزهر في كأسها ينتظر، لم تشرب منه. لن تشرب منه. لن تسكر به. الحركات الطفوليّة التي حلمت بها، عملتها جميعاً، لكن عيوننا لم تلتق. الحركات الطفولية حركات طقوسيّة صارت، وكرهتها.

النبيذ الزهر في كأسها ينتظر. لن تشربه. صوت الرصاص نسمعه منذ حين كصدى طبل ضخم في أحشائنا المائتة.

لا أحد منّا سيقول شيئاً. لن يقول شيئاً. بلى. عندما تذهب، كالحشّاش سأحاول أن أفتش عنها، في خيالي الذي عرفها، سنبلة نابتة في أرض أيلول الموات.

التلفزيون دائر، موسيقى مخيفة تطلع منه. الجريدة ممزقة، رميت بها إلى الصوفا، القنديل الأصفر في قبو العقد مضاء. أطفأته.

أخذت غليوني، في آخره تبغ عتيق، محروق. أولعته. جَرَح دخانُه الحاد حلقي. تابعت التدخين. إبني يغنّي. ذهبت إليه، ارتميت على سريره، أغمضت عيني، سمعته:

«كالأرض المسلوبة، كالأرض المجتاحة سأسترجعك شبراً شبراً.

كالأرض المحروقة سأعيد عمارك حجراً وقرميداً.

كالأغنية الضائعة سأعيد تأليفك نبرة نبرة.

مع عينيك أتحاور ويديك وشفتيك.

ومن جديد، نخلق طفلين يتعلّمان الكلام معاً، والمشي معاً، والركض معاً. وأجرح هذا الليل الذي يبعدني عنك...»

قمت إلى حدّ البركة. كانت تمطر على شجرة الفيء، على المصطبة، على شعري الرمادي.

10 آذار

السكوت كالرمل في قبو العقد. ضوء واحد ينعكس على الحجارة العتيقة، الفرس الصغير المعلّق على الحائط يتطاول ظلّه أبعد من كل مراميه.

تركت الطاولة. أفرغت الكأس مرّة واحدة. مسحت بكفّي ما سقط منها حول شفتي.

استلقيت على الطرّاحة، عيناي إلى السقف.

الساعة الكبيرة تتوالى تكّاتها حياديّة كماء في نهر.

المنقل النحاسي قربي، بارد الرماد، ملّست بيد على دوائره وبيد تلمّست جدار الحجر.

القبو يتّسع، السقف يعلو، الكلمات تتسابق إلى خاطري هذيان اتّصال، كتابة ذهنيّة، كولادة الربيع، كضحكة الطفل، كحياة المسيح، لي أنا هذه المرّة، لي أنا وحدي.



